رواية

الأطلسي التائه

@ketab_n
Follow Me
14.8.2015

مُصطفى لِغتيري

دار الآداب

مصطفى لغتيري

الأطلسي التائـــه

روايـة

دار الآداب ـ بيروت

Twitter: @ketab_n

الأطلسي التائه

Twitter: @ketab_n

الأطلسي التائه
مصطفى لِغْتِيري / روائي مغربي
الطبعة الأولى عام 2015
ISBN 978-9953-89-482-9
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

/Dar.Al.Adaab @DarAlAdab daraladab.com

Twitter: @ketab_n

الفصل الأوّل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في غفلة منّي ومن جميع الناس من حولي، اختطفني الطول فجأة، وطوّح بي نحو المجهول.. في كلّ نهار وليلة، أنمو باضطراد ملحوظ، حتى بزتُ أقراني طولاً، وأصبحت لا أُعرَف إلّا به بين الناس، فينادونني «أبو يعزا الطويل».. من بعيد، أبدو كنخلة سامقة تتطلّع بافتتان نحو زرقة السماء مترامية الأطراف، وبفعل هبّات الريح المتوالية، يتمايل سعفها ذات اليمين وذات الشمال، فلا يزيد النخلة غير خيلاء بالذات، وكلّما لفحتها حرارة الشمس تضاعفت سخونة رأسها، فتأبى إلّا أن تردّ على ذلك بمزيد من الامتداد نحو أعلى.. متطامنًا، حاولت أن أمضي في طريقي بداية الأمر، خجولاً كنت إلى حدود قصوى، يربكني هذا الانخطاف المتواصل نحو الأعلى، لكنّني ما لبثت أن اعتدت الأمر وتجاهلته إلى حين.. كان والدي ينظر إليّ بكثير من الفخر وهو يراني أزداد طولاً، وكأنّ نفسه تحدّثه قائلة: «ها هو ساعد

Twitter: @ketab_n

جديد يضاف إلى ساعدي الذي ما فتئ الوهن يتسرّب إليه.. وحتمًا سيساعدني على صروف الزمان التي تزداد يومًا بعد يوم شدّة وقسوة»..

أمّي من جانبها، كانت تختلس إليّ النظر حييّة مبتسمة، بيد أنّها لا تكاد تنطق حرفًا، إنّها امرأة يكبّلها الحياء حتى تجاه أقرب الناس إليها، فلا تكاد ترفع عينيها حتى إلى وجه زوجها / أبي، أو إلى وجه ابنها / أنا، الذي لم يزدني التقدّم في العمر سوى انكفاء عن الذات..

حركات أمّي تستهويني كذلك، أتطلّع إليها بفضول وهي تغربل الطحين وهي تعجنه، ثم وهي تحمله إلى الفرن الطينيّ في حوش البيت كي تخبزه. كانت هذه الأمور الصغيرة تستغرق حياة أمّي بشكل مثير، وأنا كذلك استغرقتني بكثير من الهوس، حتى إنّني في كثير من الأحيان طلبت من أمّي في خجل أن أساعدها في ما تقوم به.. كانت أمّي تردّ باستحياء مبالغ فيه، لكنّها ـ في نهاية المطاف ـ كانت توافق، فأنكفئ على وجهي كي أساعدها في بعض الأمور.. العجين استهواني بشكل خاصّ، أمسك قطعة منه وأضغطها بيديّ، ثم أحرّكها ذات اليمين ذات اليسار في «القصعة»، بعد ذلك أضيف إليها بعض الماء كلّما استعصت على الحركة، وأعالجها حتى تلين، فأُعيد تشكيلها بما تستهويه النفس، أصنع من العجين قطعًا تكاد تكون متساوية، ثم أضغط عليها بيدي بعد أن أرشّ عليها مسحوق الطحين، أستمرّ في الضغط عليها وصفعها بكفّي التي اشتدّت طولاً، حتى تستوي وتصبح قرصًا

Twitter: @ketab_n

مناسبًا، فأنتقل إلى الأخرى، أختلس نظرة نحو أمّي، فألمح في عينيها ابتسامة رضا خجلى، لا تكاد تعلن عن نفسها، وفي نوع من التواطؤ المكشوف، تنحني أمّي بجنبي. وتطفق تساعدني في هذا العمل الأثير، ثم ما ألبث أن نضع العجين جانبًا في انتظار أن تعدّ أمّي الفرن، كي ننهمك في إعداد الخبز بطبخه على وهج النار المتّقدة.. هذا الأمر يثيرني بشكل كبير، فقط أبي كاد يتملّكه جنون الغضب من قيامي به.. كان يرفض رؤيتي على هذه الحال، يغضب.. يبدأ في الشتم بكلمات نابية أخجل من ترديدها. لم تكن أمّي تقوى على حمايتي من هذا الغضب الجارف، فقط كانت تلتزم الصمت والرعب يتراقص على سحنتها المسالمة، لم يكن أبي يوفّرها من السباب الذي أنال النصيب الأكبر منه. لقد كان يعتبرني مخنّثًا، لا يعوَّل عليه، وأنّ الأعمال التي أقوم بها جديرة بأن تشعرني بالخجل. لم أكن أستوعب سبب غضبه، لأنّني كنت أعتقد أنّه سيسعد لكوني أقدِّم العون لأمّي، وبأنّني أصبحت نافعًا للبيت، بدل أن أبقى عاطلاً بدون شغل أو فائدة، لكنّه كان مصرًّا على إهانتي بشكل كبير، حتى إنّني أصبحت أتحرّج من أن يجدني في مثل هذا الوضع الذي يعتبره مشينًا، فوجدت أنا وأمي طريقًا لتفادي تعابيره النابية التي كانت تصيبني في مقتل. لقد كانت تظلّ تحفر عميقًا في نفسيّتي الهشّة، التي لا تستطيع تحمّل مثل هذه الإساءة البليغة.. تواطأتُ صحبة أمّي على أوقات معيّنة نمارس فيها أعمالنا الجميلة، تشعرنا بالتقارب إلى حدود التماهي، كنّا نعجن، نغسل الأواني المنزليّة ونكنس ونطبخ في الخفاء. من الأمور التي بدأت تستهويني كذلك الطريقة التي تزيّن

Twitter: @ketab_n

بها أمّي وجهها. لقد كنت مأخوذًا بطريقتها، التي تمسك بها المرود، وتغمسه في المكحلة، ثم تخرجه بعد أن يعلق به الكحل، بعد ذلك تشرع في تمريره وسط عينيها بكثير من الدقّة، تبدأ بالعين اليسرى ثم تنتقل فيما بعد إلى العين اليمنى، وحين تنتهي تطرف بعينيها لفترة من الزمن، ثم تكشف عن عينين حوراوين تمتلكان القلب وتوقفان نَفَس الناظر؛ بعد ذلك تعمد إلى قطعة من السواك، تضعها في فمها، وتطفق تلوكها بطريقة منتظمة وفعّالة، تنتشر رائحة السواك في البيت، فتكاد تسكرني بفعل رائحة نفّاذة، تشي بجودة السواك، الذي تعرف أمّي كيف تنتقيه من «العطّار»، الذي يتنقّل بحماره من مكان إلى آخر حاملاً معه كلّ ما يستهوي النساء، ويتملّك لبّهنّ من كحل وسواك وحنّاء وغيرها.. بعين شغوفة، كنت ألتقط هذه الطقوس، التي كانت أمّي تتقنها وتمارسها بكثير من الشغف، غير أنّني لم أتجرّأ يومًا على أن أطلب منها أن تناولني شيئًا من ذلك، أو أن تسمح لي بتجربته على الأقلّ. كنت أعرف أنّها لن تمانع، لكنّي كنت أتوقّع ردّة فعل أبي، الذي أبدًا لن يستسيغ هذا الأمر إن وقعت عيناه عليّ وأنا أجرّبه، لكنّني لم أستطع على ذلك صبرًا، فقرّرت أن أحتال للحصول عليه، فادّعيت يومًا أنّ عينيَّ تحرقانني بسبب مرض ألمَّ بهما، كانت أذناي قد تلقّفت سابقًا أنّ الكحل يصلح كدواء لبعض أمراض العيون. لم تتوانَ أمّي في تلبية رغبتي، إذ إنّها سرعان ما تلقّفت مكحلتها وقامت بطقوسها المعلومة. أخذت المرود، نظرت إليه بتحبّب زائد، ثم مسحت وجهي بنظرة حانية، وأفرجت عن ابتسامة معبّرة، جعلت السعادة تنبثق من أعماق

Twitter: @ketab_n

قلبي.. دسّت المرود في المكحلة، وأصرّت على أن يحمل كمّيّة كبيرة من الكحل، ثم أخرجته بكثير من التأنّي، طلبت منّي أن أفتح عيني إلى حدود قصوى.. انتابني بعض الرعب، تملّكني الخوف من أن يصيب المرود المدبّب بؤبؤ عيني، فأُصاب بالعمى، لذا نكصت إلى الخلف وجلاً. شجّعتني أمّي بابتسامة أشدّ رحابة، فاستسلمت لقدري.. سلّمتها عينيَّ، فأدخلت المرود ثم طلبت منّي أن أطبق عليه برموشي.. استجبت لها.. أغمضت عينيَّ، فأخذت تمرّر المرود داخل عينيَّ بلطف ممتزج بكثير من الحرص.. عيناي نجلاوان بشكل مثير، يكتسحهما بياض لامع يتلاءم مع سمرتي الضاربة إلى السواد، لذا ما إن اكتحلتُ حتى كادت أمّي تصاب بالذهول، لقد بدوت لها أجمل رجل في العالم، هل تقصد أنّني أُشبه أجمل عروس في العالم؟ لا أدري! لكنّني انتشيت بهذا الاحتفاء من قِبَل والدتي.. هذه السعادة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما انقلب الفرح إلى غمّ مقيم، فما إن وقع بصر أبي عليّ بعد دخوله إلى البيت حتى ولول وملأ الدنيا صراخًا، أخبرته بأنّ عينيَّ بهما رمد، لكنّه مع ذلك لم يستسغ أن أكحّل عينيَّ، لقد جنّ جنونه واكتسحه غضب جارف، وأقسم بأنّه سيتخلص منّي في أقرب وقت ممكن.. هذا القسم أرعبني وأفزع قلب أمّي، كنّا كلانا نعرف أنّه لن يتهاون في تنفيذ وعيده، إنّه رجل غاضب دومًا وبلا سبب، فكيف سيكون عليه الأمر وقد أصبح له سبب مقنع لغضبه!..

منذ ذلك الحين، أصبحت في حالة انتظار لعقاب أبي، الذي أعرف أنّه لن يتأخّر طويلاً.. حاولت أن أتفادى كلّ ما يمكن أن

Twitter: @ketab_n

يزيد من حدّة الموقف، لم أعد أقضي الكثير من بياض يومي في البيت، كنت أخرج إلى الخلاء وأهيم على وجهي في البراري وشعاب الجبال، ألتقط من الأرض بعض نباتها، وأتذوّق هذا وذاك، وأتعرّف على أنواع جديدة، وكلّما صادفت نباتًا لا أعرف له اسمًا، حملت بعضه في جرابي، لأنقله معي مساء إلى البيت كي تخبرني جدّتي «توذة» باسمه وبفوائده. كانت جدّتي وما تزال تتمتّع بمعرفة واسعة بعالم النباتات، وكانت تردّد دومًا لو أنّ الناس يعرفون منافع النباتات لاكتفوا بها ولما احتاجوا إلى غيرها، ففيها غذاء ودواء، وقد ورثت منها هذا الشغف بالنباتات، حتى أضحيت ملمًّا بكثير من أسمائها ومنافعها.. أتوقّف هنا وهناك، أتطلّع بكثير من المهابة إلى الجبال الشامخة في عنفوان، يستوقفني طائر يحلّق في الأجواء، إن عرفت له اسمًا ردّدته بيني وبين نفسي، وإن لم أوفّق في ذلك، اجترحت له اسمًا من عندي أكتفي به إلى حين معرفة اسمه الحقيقي. لقد استهوتني إلى أبعد الحدود لعبة الأسماء، التي بدت لي عميقة ومسلّية، تمرّن ذهني على الحفظ وتناسل المعاني. كنت كثيرًا ما أحرص على الإتيان بأسماء لكلمات عدّة تتشابه في أصواتها أو في شكلها، ويستغرقني ذلك زمنًا طويلاً دون أن يجد الملل إلى نفسي طريقًا سالكًا. لقد استهوتني هذه اللعبة بشكل لا يكاد يصدّقه غيري. هذه الجولات استبدّت بقلبي، فالمنطقة التي أقطن بها توجد في مكان على مشارف الجبل، بل عند قدميه، ويسهل على الأهالي التوغّل فيه. إنّها منطقة هسكورة التي تمتدّ على أرض شاسعة على مقربة من مدينة دمنات المتوغّلة نسبيًّا في عمق الجبال، ولا تبعد كثيرًا عن

Twitter: @ketab_n

السفح الذي اختطّ فيه السلطان الجديد مدينة سمّاها «مراكش»، ويبدو أنّه سيستقرّ هو وحاشيته فيها، ويجعلها عاصمة ملكه، ومنها ينطلق إلى باقي الربوع كي يخضعها لسلطانه..

في إحدى الأماسي، عدت بعد أن نال الجسد حظّه من التعب، فإذا بي أجد أبي واقفًا عند باب البيت. ما إن وقع عليه نظري حتى تطيّرت من ذلك، عرفت أنّ وقفته تلك لن يأتي من ورائها خير، فأنا أصبحت على بيِّنة من جميع أحواله، فرغم صغر سنِّي، كنت أمتلك رجاحة عقل لا يمتلكها الكثيرون، أعرف أبي «ميمون» الذي لا يهدأ له بال، حتى ينفّذ ما يجول بخاطره. تقدَّمت نحوه بخطوات مرتبكة، فما لبث أن خاطبني قائلاً:

ـ ألن تنتهي من عاداتك السيّئة هاته؟

خفضت رأسي ولم أردّ. أعرف أنّه يقصد السياحة في الأرض والتقاط الأعشاب، ثم أضاف قليلاً:

ـ لا أدري كيف سلّط الله عليّ هذا الأهبل؟

لم أردّ بكلمة، وإنّما ظللت أحملق في الأرض، كنت متشبّعًا إلى أقصى الحدود بمبادئ طاعة الوالدين وطاعة كلّ من يكبرني في السنّ.. لم أستطع الردّ، طلب منّي الدخول إلى البيت فأطعته. كانت أمّي منهمكة في أشغالها التي لا تنتهي. رأيتها تحلب المعزاة بكثير من التأنّي، فيما كانت جدّتي تمسك مغزلاً وتبرم الصوف بحركاتها المتقنة الجميلة، لم تهتمّا بدخولنا، فقط رمتا بنظرات محتشمة ثم عادتا إلى ما شغلهما من أعمال. اقتعد أبي الأرض على حصير بالٍ من دوم أصبح لونه ترابيًّا، ثم طلب

Twitter: @ketab_n

منّي أن أجلس بجانبه. عرفت بأنّ أمرًا جسيمًا يترقّبني.. جلست وأنا مطرق إلى الأرض لا أكاد أرفع عينيَّ عنها.. لم يبتسم، أو يوطّئ لكلامه بما يجعله محبّبًا إلى النفس، فقط قال:

ـ الشريف الشرقاوي يريدك لرعي غنمه.

لم أردّ بشيء، ظللت صامتًا أنتظر أن يتفوّه بشيء إضافي، لكنّها عكس توقّعي، نهض من مكانه، وهو يقول غدًا صباحًا سأوصلك إلى بيته الكبي، وعليك أن تطيعه ولا ترفع نظرك في نسائه أو بناته، وأن تحرص على الشياه، فأيُّ تقصير منك سيعاقبك عليه وسأعاقبك أنا كذلك.

ما إن خرج أبي من البيت، حتى ذهبت نحو جدّتي.. قرفصت بجانبها، تطلّعت إلى وجهها السمح الجميل، ثم عمدت إلى جرابي. فتحته، وبدأت أستعرض ما ظفرت به من نباتات، منها ما عرفت اسمه وكرّرته على مسامع جدّتي، ومنها ما لا أدري لها اسمًا، لكن جدّتي تكفّلت بذكر الاسم والفوائد التي تحتويها النبتة: «الصعتر» لعلاج الأمراض التي يتسبّب فيها البرد؛ «الشيح» لجميع أوجاع المعدة والأمعاء؛ و«الخزامي» للأوجاع ولمداواة الشعر.. وهكذا.

كانت جدّتي تلقي بمعارفها بكثير من الأريحيّة، وهي تقول: أتمنّى أن تصبح مستقبلاً عشّابًا، تداوي علل الناس بالأعشاب التي تنتشر في الشعاب والأودية والسفوح، دون أن يفطن لأهمّيّتها الكثير من الناس. كان يعجبني كلّ ذلك وأتماهى معه، وأتمنّى أن أعالج مستقبلاً الأبدان والنفوس: كيف سيتحقّق ذلك؟ لست

Twitter: @ketab_n

أدري.. لكنّني كنت متيقّنًا أنّني مختلف عن غيري، وأنّ أبي لا ولن يفهم أبدًا هذا الاختلاف الذي يظنّه نوعًا من الدلال، لكنّني، على عكسه، أرى في سلوك المرأة ولطفها علاجًا لكلّ ما يحيط بنا من قسوة في القلوب، لذا تعجبني الأعمال البسيطة التي تنشغل بها، فيما يميل الرجال إلى القسوة والعنف، ويسعون إلى الخراب. لو امتلك أبي مثلاً المقدرة والسلطة، لما تردّد في تدمير كلّ ما يُحيط به ولن يكتفي بذلك، في حين لو امتلكت أمّي القدرة والسلطة، لعالجت كلّ مريض، وأطعمت كلّ جائع، وكست كلّ عار، وأوت كلّ ابن سبيل!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

صباح اليوم التالي، كان موعدي مع بداية مرحلة جديدة في حياتي. استيقظت كعادتي في وقت مبكر، لقد اعتدت ذلك منذ زمن بعيد.. في بيتنا، ما إن أشعر بأمّي وجدّتي تتحرّكان في أرجاء البيت الواهن، حتى يطير النوم من عينيّ.. أشعر بكثير من النشاط يكتسحني، وكأنّني أستعدّ للقيام بعمل هامّ، رغم أنّني أكاد لا أقوم بشيء ذي بال. أيقظت أمّي الوالد، الذي يحبّ دائمًا أن ينام إلى وقت متأخّر، لأنّه غالبًا ما يقضي ليله في السهر، يتسامر مع رفقائه في أمور لا تنتهي، ويقبلون بحماس على عشبة «الكيف» يتناولون بكثير من الانتشاء والافتتان، فيصيبهم الكثير من الخمول، فيلزمون أماكنهم ويتحدّثون في كلّ ما يخطر على بالهم، وهم على يقين بأنّ ما تحدّثوا فيه من مواضيع سيمحوه صباح اليوم التالي..

نهض أبي بسحنته الجافّة، التي أنهكتها صروف الزمان

Twitter: @ketab_n

وبأسنان نخرها «الكيف»، فأضحت سوداء متهالكة، قد سقط أكثرها، لم يمهلني أبي دقيقة واحدة، إذ سرعان ما طلب أن أقتفي أثره في اتّجاه بيت الشريف الشرقاوي، الذي طالما سمعت عنه الكثير من الأخبار. لقد كان بيته حديث الخاصّ والعامّ، بيتًا كبيرًا عامرًا كباقي بيوت الشرفاء، الذين قَدِم أجدادهم من الشرق، فوجدوا الخير العميم في انتظارهم، تُقتطع لهم أفضل الأراضي وأخصبها وتُبنى لهم أكبر البيوت وأبهاها، ويتزوّجون بأجمل النساء وأحلاهنّ..

بيت الشريف الشرقاوي يستقرّ في هضبة تطلّ على سهل ممتدّ إلى ما لانهاية، ويحمي ظهره الجبل الشامخ الذي تلوح قممه من بعيد. هو في مكان تتقاطع فيه جداول الكثير من العيون النابعة من أعماق الجبال، حيث تتساقط شتاء ثلوج كثيرة، وحين تذوب في بداية فصل الربيع وفي فصل الصيف توفّر الكثير من المياه، تتدفّق نحو السهول. تحيط بالبيت بساتين شاسعة، تزدهي بأشجار مثمرة من كلّ الأنواع: تفّاح ورمّان ولوز وزيتون... كلّ هذا تراقص في خيالي، وأنا أمضي في طريقي نحو البيت الكبير. لقد كوّنت عنه فكرة تكاد تكون دقيقة وشاملة قبل أن أضع قدميَّ في رحابه، كنت واسع الخيال، فأستطيع أن أبني في خيالي كلّ ما امتلكت من المعلومات الطفيفة عنه. اصطدمت قدماي بالكثير من الحجارة في الطريق. كنت أستشرف مستقبلي في البيت الكبير. بهرني بحقّ أن أكون قريبًا من الشريف الشرقاوي بكلّ هذا القدر! حتمًا سأطّلع على الكثير ممّا يخصّ حياته، وعدت نفسي بأن ألتزم بقواعد الطاعة، وأن أخدم الشريف وأبناءه بكلّ مًا أستطيع.

Twitter: @ketab_n

سأكون عبدًا خدومًا متفانيًا في الخدمة إلى أقصى الحدود. كان أبي يلتفت نحوي بين الفينة والأخرى ويحثّني على الإسراع في المسير، أخفض رأسي أكثر علامة الطاعة، ثم أوسع الخطو أكثر، مضيّعًا على نفسي رؤية الكثير ممّا يزخر به الطريق.. قطعنا مسافة معتبرة، فلقينا واديًا يتدحرج الماء في جوفه عسيرًا، لا يكاد يجد لنفسه طريقًا سالكًا. في أعماق الوادي حصى بأشكال مختلفة ورمال بيضاء تتراكم في الأسفل. على جنبات الوادي تكاثرت العديد من النباتات، منها ما عرفت لها اسمًا، وبعضها الآخر غاب اسمه عن ذهني.. أغراني هذا الوجود المفاجئ لهذا الكمّ من الأعشاب وأشجار الدفلى المنتشرة على امتداد ضفّتي الوادي، بأن أشمّر عن ساعديَّ وأنهمك في قطفها ووضعها في جرابي، الذي لا يفارقني، لكنّني بأسف، استحضرت وجود والدي الذي أبدًا لن يغفر لي «زلّة» مماثلة. تحسّرت في صمت على ضياع هذه الفرصة التي لا تعوّض، لكنّني، بيني وبين نفسي، قرّرت أن أستغلّ فرصة قادمة وأزور هذا المكان وأجمع ما تيسّر لي من أعشاب، يمكن أن أستعملها مستقبلاً فيما فيه نفع للناس.. مضينا في طريقنا.. تجاوزنا الوادي، فإذا بنا نشرف على التلّ الذي نقصده، وإذا بالبيت الكبير يلوح لي من بعيد، عرفت أنّه المكان المقصود. داخلني بعض السرور، الذي لم أعلن عنه، بل أفسحت له المجال ليضطرب في دواخلي ويؤثّثها بسمته الجميل إلى حين. تسارعت خطواتنا، وكأنّ البيت الكبير مغنطيس يجتذبنا نحوه بقوّة خفيّة لا أملك لها تفسيرًا. حين دنونا بشكل كبير استنبحنا الكلاب، فتوقّفنا ولزمنا الحذر، في انتظار أن يهلّ علينا

Twitter: @ketab_n

أحد من أهل البيت، ويوجّهنا إلى المكان الذي يستوجب علينا اللجوء إليه. وبالفعل، لم يمض بعض من وقت، حتى ظهر لنا رجل مهيب يتقدّم نحونا بخطوات ثابتة، أخبرني أبي متحمّسًا وعلامات الخضوع والذلّة مرتسمة على ملامحه، بأنّه الشريف الشرقاوي يقبل علينا شخصيًّا، وأوصاني بالتأدّب في حضرته وبالتذلّل له.. وصل الرجل، فارتمى أبي على يده يقبّلها، وما كان منّي سوى أن أقوم بمثل فعله.. تلقّفت اليد الشريفة ولثمتها بما يليق بها، ثم نكصت إلى الخلف في كثير من الخضوع والمسكنة، حينها انبرى أبي للقول: «هذا ابني أبو يعزى، وهو عبدك وخادمك، فافعل به ما تشاء، إن لم يطعك اذبحه وأرسله لي لكي أسلخه».

راقت هذه الكلمات للشريف، فطلب من أبي أن يرافقه إلى أحد مرافق البيت الكبير. تقدّمنا جميعًا.. الشريف أمامنا ونحن خلفه، نقتفي خطواته بكثير من الحرص، وكأنّنا نخشى أن نطأ آثار أقدامه ونتسبّب لها في ما لا يليق بالآثار الشريفة.. أشار الشريف إلى كيسين ممتلئين، عرفت فيما بعد أنّ أحدهما شعير والآخر ذرة، أخذهما أبي بكثير من الامتنان. فطنت أنّ أبي أخذ أجرتي مقدّمًا، وأنّ عليّ أن أتفانى في القيام بعملي حتى نستحقّ ما نلناه من الشريف، وأنّ الاتفاق الذي تمّ بعدم حضوري يتمثّل في حصول أهلي على قوتهم شعيرًا وذرة من الشريف مقابل رعيي للغنم، وربّما القيام بأشياء أخرى لا يعلمها إلّا الله! كنت أخشى من أن يكون الشريف لا يتحدّث غير اللغة العربيّة، فإذا بهذا الغمّ قد انزاح عن قلبي، حين بدأ الشريف بالحديث بلساننا وكأنّه

Twitter: @ketab_n

واحد منّا، ومن قال إنّه ليس كذلك، بل هو أكثر منّا انتسابًا إلى أرضنا.. أليس هو من يملكها؟!

انصرف أبي بحمولته من الذرة والشعير، فيما قادني الشريف نحو الحظيرة، وهو يوجّه لي الكثير من النصائح، مازجًا ما بين اللين والقسوة، يغريني بالطعام الجيّد والاهتمام، ويتوعّدني بالعقاب الشديد إن أهملت عملي أو ضاعت شاة أو أصابها مكروه.. لزمت الصمت كحكمة استمدّيتها من أمّي، التي كانت دومًا توصيني بأنّ الصمت خير دفاع عن النفس. كانت تردّد دومًا على مسامعي: «إن لزمت الصمت لن تخطئ أبدًا، وإن تحدّثت لن تأمن الخطأ».

يبدو أنّ الشريف قد أعجبه صمتي، فطلب منّي أن أسرح بالماشية، وحدّد الأماكن التي يمكنني أن أقود فيها رعيّتي دون أن أتجاوزه، حتى لا أعتدي على ممتلكات الغير، وهي في الغالب لشرفاء آخرين لن يتخاذلوا في الدفاع عن مراعيهم بكلّ ما يملكون من قوّة وبأس، قد تصل إلى حدود القتل، وقد أرعبني حقًّا حين أخبرني أنّ رعاة كثيرين قضوا نحبهم، لأنّهم لم ينتبهوا إلى الحدود الفاصلة بين مراعي شريف وآخر، فعرّضوا أنفسهم للأذى بل للموت. كان تنبيهه هذا لي بمثابة الصخرة التي ستستقرّ في سويداء قلبي، وسأحملها معي أينما حللت وارتحلت.. لقد غرست الخوف عميقًا في نفسي، حتى إنّني قرّرت أن أكون كثير الانتباه والحرص، لأنّني أعرف جدًّا أنّ الشرفاء أغنياء ويميلون إلى القسوة في تعاملهم مع الآخرين، ولا يتسامحون أبدًا في

Twitter: @ketab_n

أبسط الأشياء.. لقد دأب الناس على رواية الكثير من الأحداث، التي قضى فيها خلق كثير بسبب غضب الشرفاء.

ناولني الشريف خبزة من الشعير وقربة ماء، دسستهما في جرابي، ثم توكّلت على الله لأنخرط في عملي الجديد. أبدًا لم يشكّ الشريف بأنّني غير قادر على القيام بهذا العمل، فطول قامتي لا يدلّ على عمري الحقيقي، وقد أعجبني ذلك. قدت الغنم في اتّجاه المرعى، وقد لحقت بي بعض الكلاب التي يبدو أنّها اعتادت مرافقة الغنم، لم أشعر بالخوف نحوها، بل صمّمت على أن أجعل منها رفاقًا لي ومساعدين في رعي الأغنام. مددت يدي نحو الجراب، أخذت كسرًا من الخبز ورميتها نحو الكلاب، فأسرعت نحوها وتقاسمتها بعفويّة تامّة، وكأنّها تعوّدت على هذا الأمر. أجهزت الكلاب على القطع الصغيرة، فبصبصت بذيولها مبتهجة، ثم ركضت نحو القطيع ترافقه بنوع من الكياسة والحرص.. أبهرني سلوكها المتفاني، فقدّرت الكلاب أكبر تقدير. كان عليّ والحالة هاته أن أقارنها بالبشر، فرجّحت عندي كفّة الكلاب، لقد سعدت بصحبتها الطارئة التي لم أتوقّعها، ولم أضعها يومًا في الحسبان.

توغّلت في الطريق، تجاوزت مكانًا أخصب، يمتلئ بالحجارة الصغيرة والكبيرة، ثم ما لبثت أن وجدت نفسي أمام أرض منبسطة ينمو فيها عشب كثيف، عرفت أنّها المرعى المقصود، كما لاحظت أنّ الأغنام والكلاب تعرفه جيّدًا، فقد انتشرت بعفويّة ودون توجيه منّي في رحابه، فيما اخترت أنا مكانًا

Twitter: @ketab_n

مرتفعًا أُشرف منه على الأغنام وأتّخذه مستقرًّا لي.. بعد قليل، أُخذتُ بهذه الكائنات الوديعة، التي لا همّ لها سوى التهام العشب، تمدّ أعناقها نحو الأرض وتنهمك في تقطيع النباتات، تلوكها للحظات ثم تبتلعها، عجبت لأمرها وغبطتها على راحة الضمير التي تتمتّع بها. لا شيء يقلق هدوءها أو يعكّر راحة نفسها. إنّها قنوعة ومنشغلة بنفسها إلى أبعد الحدود.. الكلاب من جانبها كانت تتحرّك باستمرار هنا وهناك، وكأنّها قسّمت الأدوار فيما بينها، كلّما شردت شاة تنبّه لها أحد الكلاب وأسرع نحوها، وطفق يزجرها نابحًا، حتى ترعوي وتعود إلى رشدها وتلتحق بباقي القطيع.. قمت بجولة في المكان أستطلعه وأكتشف ما يحتويه، فتعرّفت على أنواع الأعشاب الذي تضمّها الأرض في كنفها.. التقطت بعضها ودسستها في جرابي، لأنّني أعرف فائدتها، ثم عدت إلى مكاني أتتبّع شويهاتي، التي راعني عددها الكبير، فلم أكن أتوقّع أن يمتلك الشريف كلّ هذا العدد من الأغنام، إنّها تعزّ على الحصر ويصعب الإحاطة بها.. لم أنشغل بذلك كثيرًا، إذ سرعان ما لفت انتباهي نباح متكرّر يأتي من الجهة الأخرى من المرعى في مكان محجوب عن البصر، تطلّعت بفضول نحو المكان، فإذا بي أرى طلائع قطيع آخر يتقدّم بتؤدة نحو المرعى. خفق قلبي بشدّة، كنت خائفًا من وقوع مشاكل في يومي الأوّل، قد تؤثّر على شغلي الذي بدأت اليوم.. أمام استغرابي، زحف القطيع المكوّن أساسًا من الأبقار وبعض الخيل نحو المرعى،.الذي تسرح في جنباته أغنامي. كان عليّ أن أتصرّف، فتوجّهت نحو الراعي الذي يقود القطيع، دنوت منه

Twitter: @ketab_n

بشكل متدرّج، فإذا بي أمام شابّ يكبرني بسنوات، لكنّه يقصرني بكثير، كان يرتدي ملابس بسيطة، لكنّها أفضل ممّا أرتدي، إذ لم أكن أظفر سوى بجلباب حائل اللون ممزّق الأطراف. ما إن تواجهنا حتى رحَّب بي قائلاً:

ـ أنت راعي الغنم الجديد.. مرحبًا بك.

لجم ترحيبه لساني، فأردف قائلاً:

ـ أنا راعي البقر والخيل. بقر وخيل مولاي الشريف الشرقاوي.

بدأت تدريجيًّا أستوعب الموقف.. حقيقة سعدت بالرفقة المفاجئة هاته، فكيفما كان الأمر، فلا يمكن للكائنات البكماء أن تعوِّض رفقة البشر طليقيّ اللسان، فرغم ما يمكن أن يتسبّب فيه البشر من مشاكل، غير أنّ رفقتهم لا يمكن الاستغناء عنها. رحّبت برفقته.. علت أسراري الفرحة، وافترّت شفتاي عن ابتسامة تشي بما أكنُّه في نفسي لهذا الوافد عليّ. انتشرت الأبقار والخيل في المرعى، وأخذنا نحن مكانينا على ربوة، تشرف على المكان من حولنا. تجاذبنا أطراف الحديث. عملاً بنصيحة أمّي الخالدة في إيثار الصمت، لم أتكلّم كثيرًا وإنّما استمعت أكثر، فاض حديث الشابّ بالكثير الكثير، حدّثني عن الشريف الشرقاوي والخير الذي ينعم فيه بفضل بركة النبيّ الكريم الذي ينحدر نسبه منه، وحدّثني عن أبنائه الذين يتلقّون العلم في فاس، ولا يحلُّون في المكان إلّا خلال فترات متعدّدة، ثم وصل الحديث إلى بنات الشريف، اللواتي لا يبزّهنّ أحد جمالاً، قال لي وهو مندهش:

Twitter: @ketab_n

ـ لو رأيت لالة فاطمة الزهراء لأغشي عليك. وكأنّها ليست بشرًا.

انشغلت بحديث الشابّ عن عائلة الشريف الشرقاوي، الذي استفاض فيه بما يلزم وما لا يلزم، لكنّه بعد حين اكتفى.. ثم عمدت يده إلى جرابه، فأخرج قصبة مزركشة، إنّها ناي جميل الصنع، ثم عمد إلى النفخ فيه، فأصدر أنغامًا جميلة، تملّكت عليّ لبّي فأصبت بالذهول، لقد كان الشابّ يتقن العزف بشكل لا يمكن تصوّره، حتى إنّه حرّك في النفس كوامنها، فاستخفّني الطرب وتماهيت مع هذا الأداء الجميل المثير، حتى كاد يغشى عليّ، فاكتشفت في نفسي خصيصة أخرى لم أعرفها من قبل، وهي رهافة إحساسي تجاه العزف.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مساء قُبيل غروب الشمس بقليل، أعددنا العدّة للعودة من حيث أتينا، اهتممت أنا برعيّتي من الغنم، فيما ركّز زميلي إبراهيم انتباهه على رعيّته من البقر والخيل. نصحني صادقًا أن نبعد القطيعين عن بعضهما بعضًا، حتى لا يختلطا.. عملاً بنصحيته، حاولت أن أشمل باهتمامي جميع قطيعي وأبعده عن البقر والخيل.. الكلاب كانت لي عونًا في ذلك، لقد أحاطت بالغنم من كلّ جانب، وطفقت تنبح باستمرار، وهي تتنقّل من مكان إلى آخر. لقد كانت مدرّبة على هذا الأمر، فيسّرت عليّ جمع شتات القطيع والتقدّم به نحو الحظيرة. الأغنام، وقد أخذت كفايتها من العشب، مدّت أعناقها وهي تمضي في طريقها لا تلوي على شيء، سوى أن تحتضنها الحظيرة، التي من الممكن أن تكون قد حنّت إليها، بشكل لا يمكنني تصوّره.. استمررت في طريقي أهشّ بعصاي على شويهاتي وأنا لا أفارقها ببصري،

Twitter: @ketab_n

فيما عقلي يفكّر في أشياء لا حصر لها.. مأخوذًا كنت بسلوك هاته الشويهات، التي حباها الله بهذه القدرة على الهدوء والاستسلام والطاعة. قارنتها بالإنسان، هذا المخلوق العصيّ على الفهم.. الإنسان مختلف تمامًا، وهو أصناف وأنواع، فمنه المطيع الذي لا يسبّب لغيره أذى، واعتبرت نفسي من هذا النوع المسالم؛ ومنه صعب المراس، قويّ الشكيمة، لكنّه يظهر للناس عكس ذلك، بيد أنّه لو امتلك القدرة والوسيلة لما تردّد في إفناء البشر عن بكرة أبيهم، اعتبرت أبي أحدهم؛ ومنهم المتمرّد الذي لا يكفّ عن خلق القلاقل، وهؤلاء هم أولئك الذين تحصّنوا بالصحراء ويهاجمون القوافل والمدن والبوادي بين حين وآخر.. في طليعتهم أولئك الملثّمون الأشدّاء، الذين استولوا على سلطة الزمان، والذي يسري حديثهم سرًّا على كلّ لسان، خوفًا أو حسدًا..

استغرقني التفكير إلى حين في أحوال الناس، لكن سرعان ما لاح لي البيت الكبير، فاستعددت لإدخال القطيع إلى الحظيرة. لقد قدّرت أنّه في يومي الأوّل كنت موفّقًا في عملي، فلم تعترضني أيّ صعوبات تُذكر، ولقد مَنَّ الله عليّ بإبراهيم زميلي في الرعيْ، الذي وجّه لي الكثير من النصائح العمليّة، أفادتني كثيرًا..

عند باب الحظيرة، ازدحمت الأغنام، ترغب جميعها في الدخول دفعة واحدة، لكنَّ بعضها شرد عن الباب، فكانت الكلاب له بالمرصاد، ارتفع نباحها، واشتدّت حركاتها وتوتّرت،

Twitter: @ketab_n

أخافت الغنم، فعادت مستسلمة لقدرها إلى باب الحظيرة، ومنه ولجت إلى مستقرّها آمنة مطمئنّة.. أدخلت الغنم كلّها إلى الحظيرة، واستعددت للمغادرة إلى حيث أستطيع أن أنال قسطًا من الراحة، لكنّ إبراهيم الذي أدخل قطيعه من الحيوانات الضخمة إلى حظيرتها، فاجأني بقوله:

ـ الآن يجب عليك أن تعدّ للقطيع غذاءه الليلي.

لم أفهم قصده، كنت أظنّ أنّ ما تناولته الأغنام خلال النهار يكفيها حتى اليوم التالي.. لاحظ إبراهيم الحيرة تتأرجح على جبيني، فأردف قائلاً:

ـ هناك في البيدر توجد كمِّيَّة كبيرة من التبن، يمكنك أن تأخذ منها قدرًا مناسبًا، توزّعه على الأغنام، ثم تجدّد الماء لها، وبذلك تكون قد أنهيت مهمّتك.

لم أردّ عليه بشيء، وإنّما توجّهت رأسًا نحو البيدر، أخذت منه حزمات من القشّ، ونقلتها تحت إشراف إبراهيم إلى الحظيرة، ووزّعتها أمام الأغنام، التي أمام استغرابي، مدّت أعناقها من جديد لالتهام القشّ. غريب أمر هذه الشياه، لا تكفّ عن الأكل، وكأنّها بذلك تعوّض عن أشياء أخرى لا تستطيع القيام بها.. تركت الأغنام في شأنها، وانتقلت إلى الساقية بعد أن حملت دلوًا وطفقت أغترف المياه وأنقلها إلى الحظيرة، حتى ملأت المكان المخصّص لذلك.

ما إن انتهيت من عملي حتى تنفّست الصعداء، لقد رضيت نفسي عمّا قمت به. رافقت إبراهيم نحو حظيرة الأبقار ثم حظيرة

Twitter: @ketab_n

الخيل، تتبّعت عمله الذي يتقنه بشكل جعلني أغبطه، وتمنّيت أن أحسن عملي مثله وأتقنه في يوم من الأيّام كما يتقنه. أنهينا عملنا وتوجّهنا إلى الكوخ الذي سنقيم به، كوخ بسيط، يتمدّد على أرضيّته حصير بال.. أثار انتباهي بعض الكتب المتناثرة هنا وهناك.. خمّنت أنّ إبراهيم يخفي شيئًا عظيمًا وراء سحنته البسيطة ومظهره المسالم الخادع، ففي تقديري لا يمكن لمن يهتمّ بالكتب أن يزاول عملاً مثل عمله، فرعي الأغنام والأبقار عمل يقوم به الأمّيُّون والجَهَلة، الذين لا حظّ لهم من علم أو صنعة. لقد تأكّدت ممّا فكّرت فيه حين كان إبراهيم يحدّثني.. كان مختلفًا في حديثه، كلامه منظّم وبسيط يصل بمستمعه دومًا إلى غاية ما.. الكتب أجّجت الفضول في نفسي، فسألته قائلاً:

ـ لمن هذه الكتب؟

صمت إبراهيم للحظات، ثم ردّ عليّ قائلاً:

ـ سأحكي لك حكايتها فيما بعد.. لدينا كلّ الوقت لفعل ذلك.

لا أدري لماذا ابتهجت بوجود الكتب! فرغم أنّني لم أنل حظّي من التعليم، إلّا أنّني كنت أشعر بانجذاب غريب نحو العلم والكتب وكلّ ما له صلة بهما، دومًا كنت أميل إلى الاستماع إلى الفقهاء، يعجبني الكثير من كلامهم، وكان يستهويني الرواة الذين يملكون القدرة على الحكي، تعجبني الطريقة التي يشدّون بها انتباه المستمعين، فأشعر بأنّ وراء ذلك سرًّا، كنت أتمنّى كشفه يومًا ما. في نفسي، قلت «لا بدّ أن يكون إبراهيم متعلِّمًا،

Twitter: @ketab_n

وسأتعلَّم منه قدر المستطاع».

توضّأ إبراهيم وصلّى بعض الركعات التي طالت قليلاً، لم يطلب منّي أن أفعل مثل صنيعه، لكنّني بادرته قائلاً:

ـ أريد أن أتعلّم منك طريقة الصلاة.

بروح سمحة، ردّ عليّ قائلاً:

ـ الأمر بسيط، فقط قلّدني فيما أفعل.

وعزمت على أن أفعل، فعلت.. فيما بعد، عمد إبراهيم إلى سراج زيتيّ أوقد فتيلته، واقتعد مكانه، وطلب منّي أن أقترب منه.. شعرت بكثير من الاطمئنان، فاقتربت. لقد اعتبرت إبراهيم أخي الأكبر، وعزمت على أن أطيعه هو كذلك في كلّ ما يأمرني به، لقد كان لون بشرته مختلفا عليّ.. كان أبيض اللون عكسي أنا، الذي تدلّ عليّ بشرتي السوداء، لكنّني أحسست بعاطفة قويّة نحوه. اقتعدت الحصير بجانبه.. مدّ يده نحو جراب كبير أخرج منه جلبابًا، ثم طلب منّي أن أرتديه ليقيني برد الليل، كنت قد تعوّدت هذا البرد ولا يشكّل لي أيّ مشكل، لكنّني ممتنًّا قبلت هديّة إبراهيم، واعتبرتها هديّة من أخ لأخيه. بسرعة ارتديتها، فشعرت بكثير من الدفء يتسلّل إلى أوصالي، ابتهجت بذلك، فظهرت الفرحة على كلّ ملامحي، وانعكس ذلك على وجه إبراهيم، الذي بدا سعيدًا بهديّته إليّ.

كان لا بدّ للحديث أن يأخذنا من ناصيتينا، وأن نخوض فيه بكلّ ما نملك من رغبة... سألني عن أسرتي، فحدّثته عنها بكثير

Twitter: @ketab_n

من الاقتضاب، لم يكن هناك ما يستحقّ الذكر، تحدّثت عن قسوة أبي وليونة أمّي، وحكمة جدّتي، وذكرت بعض إخوتي بما لا يستحقّ الاهتمام. خجلت أن أسأله عن أسرته، لكنّه أحسّ بذلك، فوفّر عليّ الإحراج، وتفضّل قائلاً: «أنا من سوس في الجنوب. أبي عالم وفقيه، كان يعلّم الصغار القرآن الكريم. قضيت في كنفه المدّة الكافية لحفظ القرآن، وكان من الممكن أن أكتفي بذلك، لكنَّ نفسي حنّت إلى المزيد من العلم والمعرفة والتزوّد بالزاد الذي لا زاد ينفع غيره، توجّهت إلى رباط أكلو قرب حاضرة تيزنيت، وهناك انخرطت في تعلُّم الفقه وتقدَّمت في ذلك تقدُّمًا كبيرًا، غير أنّ الرياح تمشي بما لا تشتهي السفن، لقد تحطّم كلّ شيء فجأة وأصبحت مطاردًا من مكان إلى آخر، ولولا ثقتي فيك لما أخبرتك بذلك.. منذ رأيتك، توسّمت فيك خيرًا لم أتوسّمه في غيرك».

لعلعت في ذهني كثير من الأسئلة «لماذا أصبح إبراهيم مطاردًا؟ هل ارتكب جريمة ما؟ هل يكون سارقًا أو قاتلاً؟».

صمتت للحظات، لكنّ الفضول استبدّ بي، فسألته قائلاً:

ـ تبدو إنسانًا جيّدًا.. لا أصدّق أنّك ارتكبت جريمة ما.

أفرج إبراهيم عن تنهيدة حرّى، ثم قال:

ـ للأسف، لا يمكنك فهم ذلك. المسألة تتعلّق برأيي في مسألة فقهيّة!

لم أفقه ممّا قال إبراهيم شيئًا، فلزمت الصمت، لكنّه بحسّه

Twitter: @ketab_n

المتواضع تطوّع شارحًا لي الأمر:

ـ البلد الآن تحت سلطة الفقهاء، ولا يقبلون أبدًا أيّ تفسير للقرآن أو الحديث غير تفسيرهم، الذي يقف عند الظاهر، ولا يقبلون بتفسير يغوص في باطن الأمور. إنّهم يفهمون الأمور بظاهرها ويشدّدون على المعنى الحرفي للكلمات، فإن قال الله تعالى ﴿يد الله فوق أيديهم﴾، فهموها يدًا تشبه أيدينا، وإذا حرّم الله شيئًا بسبب معيّن، اعتبروا تحريمه أبديًّا لا يزول بزوال الأسباب، حتى إنّهم يحرّمون الموسيقى ويعتبرونها رجسًا من عمل الشيطان.

بدا لي إبراهيم غامضًا وذكيًّا وعميقًا. لم أفهم ممّا قاله شيئًا، سوى ما تعلّق بالموسيقى، التي أحببتها من أعماق قلبي، وفتنت بها أكثر عندما سمعت عزفه الشجيّ على الناي، فلا يمكن لله أن يحرّم شيئًا بمثل هذا الجمال الروعة، خاصّة أنّه لا يتسبّب لأحد في مكروه أو شرّ، وإنّما يُسعد من أصغى إليه ويفتح قلبه على حبّ الله ومخلوقاته..

احترمت إبراهيم كثيرًا. قدّرته ووعدت نفسي أن أجعله قدوة لي في كلّ شيء، وأن أستغلّ رفقته لأتعلّم منه قدر ما أستطيع.

سمعنا طرْقات متتالية على الباب، هممت بالقيام من مكاني والتوجّه إلى الباب لأفتحه، لكنّ إبراهيم أشار عليّ بالجلوس ولزوم مكاني.. مستغربًا، استجبت لرغبته.. انتظر قليلاً، ثم انتفض واقفًا، توجّه نحو الباب، فتحه، ثم مدّ يده ليأخذ صحنًا وخبزًا وكأسيْ لبن. وضع الطعام أمامنا على الأرض، ثم أخبرني

Twitter: @ketab_n

بأنّه يتوجّب عليّ أن لا أتسرّع أبدًا في فتح الباب إن سمعت طرْقًا عليه، وأن أنتظر الوقت الكافي حتى يغادر الطارق المكان. تربّعت الحيرة على جبيني، فأردف شارحًا قوله.

ـ غالبًا ما يكون الطارق إحدى بنات الشريف الشرقاوي، لذا يجب تجنّب التطلّع إليهنّ حتى لا نقع في المحظور.

فهمت قصده، ووعدته بأن ألتزم بنصحيته. مددنا أيدينا نحو الطعام بعد أن سمّينا الله، كان عبارة عن كسكس وكأسين من اللبن. بتأنٍّ، تناولنا طعامنا الذي تعلوه بعض الخضر، التي لم أتذوّق طعمها منذ زمن بعيد، كنّا نأكل ونبلّل بلعومينا بجرعات من اللبن.. لاحظت أنّ إبراهيم بطيء في تناوله للطعام، ففهمت أنّه يفسح لي المجال لأكل أكبر كمِّيَّة ممكنة. شعرت بالخجل من كرمه، فأصبحت أكثر تردّدًا في ابتلاع الطعام. لاحظ ذلك، فشجّعني على الأكل قائلاً:

ـ كُل يا أبا يعزى، فأنت في حاجة إلى الطعام أكثر منّي، لأنّك أصغر منّي سنًّا.

لم أردّ عليه بشيء، وإنّما استمرّيت على ديدني أتحرّج في التهام الكسكس، وأحاول أن آكل أقلّ ما يمكن.

انتهينا من الطعام.. دفع إبراهيم الصحن جانبًا، عمدنا إلى الماء وغسلنا أيدينا، ثم جلسنا لمتابعة الحديث. أخرج إبراهيم كتابًا من أحد الرفوف القريبة منه، ثم طلب منّي أن أستمع. تنبّه إلى أنّني لا أحسن اللغة العربيّة، فأخذ يقرأ سطرًا أو سطرين، ثم يترجم لي ما قرأه لأفهمه. كان الكتاب يتحدّث عن رجل عاش

Twitter: @ketab_n

في المشرق، ووصل حبّه لله أنّه أصبح لا يفرّق بين نفسه وبين الله. استغربت هذا الكلام، لكنّه لاقى هوًى في نفسي. استمرّ إبراهيم يشرح لي كلام الرجل والمواقف التي تعرّض لها في حياته، كيف كان يعشق الذات الإلٰهيّة عشقًا لا مثيل له، حتى إنّه تعرّض لأصناف من التعذيب على يد الحكّام وعلى أيدي العامّة على السواء، لكنّه ظلّ مصرًّا على مذهبه، يعلنه في الناس في المساجد وفي الأسواق، أو حيثما وجد خلقًا يصغون إليه.. تملّكتني حكاية الرجل بشكل لم أتوقّعه، تمنّيت من أعماق قلبي لو كنت أحد أتباعه كي أصدّ عنه أذيّة الناس، فمثل هذا الهوى أجده في نفسي، يتحرّك في قلبي في كلّ وقت وآن.. لزمت الصمت قليلاً، ثم سألت إبراهيم عن اسم الرجل، فردّ عليّ: «الحلّاج». طلبت شرحًا للاسم، فقال هو الذي يغزل الصوف، تفكّرت في الاسم مليًّا، فبدا لي رجلاً يغزل الروح بعشق الله. أعجبني ذلك ولم أتمادَ فيه.

انتهينا من حكاية الرجل أو جزء منها.. عمدتْ يد إبراهيم إلى الجراب وأخرج الناي منه، فارتعدت فرائصي فرحًا.. نفخ في القصبة، فأخذت ترسل في الأجواء نغماتها، التي تثير في نفسي الكثير من الشجون، وتذكّرني بأشياء كثيرة حدثت لي في حياتي، والغريب أن تثير في نفسي أشياء لم تحدث بعد، أشعر وكأنّها ستقع في حياتي مستقبلاً ولا فكاك لي منها.. ما إن تتابعت النغمات حتى طوَّحت بي نحو المجهول، أشعر وكأنّني أكاد أغيب عن الوعي، وأنا أتماهى مع إيقاعات الناي، وأسافر في عوالم لا علم لي بها ولم أسمع بذكرها من قبل، أرى بحورًا

Twitter: @ketab_n

وجزرًا وغابات وصحارى وأشياء من هذا القبيل، تتسارع أمام بصري وكأنّني أراها حقيقة.. ليس حلمًا ما أرى، وإنّما هو رديف للحقيقة، بحار حقيقيّة بمياه لا حدّ لها رغم أنّني لم أر بحرًا في حياتي، وغابات وكأنّها البحر في امتدادها، خضرتها كثيفة تميل إلى السواد، وكثبان رمليّة متلاطمة الرمل تتمدّد إلى ما لانهاية. تتناوب المشاهد عليّ وأنا أتتبّعها كالمسطول، لا أملك لنفسي شيئًا.. مع تموّجات الموسيقى تتغيّر المشاهد، فيتلاعب الهوى بالقلب وتميل النفس ميولاً شتّى.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بعد يوم من التعب والملل المكين في حضرة الخلاء، نتتبّع فيه أنا وإبراهيم حركات البهائم، ونتلهّى عنها أحيانًا بأحاديث عاديّة وبسيطة حينًا، ومعقّدة ومتشعّبة حينًا آخر.. يضمّنا في المساء ذلك الكوخ الواهن المجاور للحظائر.. نقوم معًا بطقوس أضحت مميّزة لأمسياتنا.. نتوضّأ ونصلّي ونتناول ما قدّر أب لنا من طعام، ثم نستغرق في الحديث الذي يبدو أنّ إبراهيم لا يملّ منه أبدًا، وقد سألته لِمَ لا يملّ الحديث، فردّ على لسان الأقدمين «بل يملّ القديم، أمّا الحديث فلا يملّ».. أنا من جانبي، أصبح كلامه يستهويني بشكل لا يصدّق، حتى إنّه أصبح المتعة المثلى التي أظفر بها بعد يوم من الرعي، والتعرُّض للشمس مع تقلُّبات الجوّ المتواصلة.. كان إبراهيم بحقّ خير محدِّث، يتناسل الحديث على لسانه بشكل مبهر، تمسك الجمل على لسانه بعضها بأعناق بعض، وتزحف نحو السمع هيّنة متألّقة، لا تزيد الأذن

Twitter: @ketab_n

سوى عطش وشغف بها وإليها.. حدّثني عن أشياء لم تخطر لي على بال، ولم أسمع بمثلها قطّ.. كان إبراهيم واسع الاطّلاع، ملمًّا بما يجري في الدنيا من أحداث، يحفظ عن ظهر قلب قصص الأنبياء، فيحكيها وكأنّه كان يحيا بين ظهرانيهم، يعرف دقائق الأمور عن حيواتهم. حدّثني عن النبي يوسف وجماله، وافتتان النسوة به وما حدث له مع زوجة العزيز، وكيف نجّاه الله من كيدها، كما حدّثني عن قدرة يوسف البالغة على تفسير الأحلام وتأويلها. هذا الجانب بالذات استبدّ بقلبي أكثر من غيره، فقد كانت لي مع الأحلام حكايات لا تنتهي.. أمّي وجدّتي كانتا تعرفان أنّ حلمي دائم التحقّق، خاصّة إن أحسنتا تفسيره، أرى الشيء وأحكيه لهما فيتنبّآ بحدوث أمر ما. أبي لم يكن يهتمّ بذلك، وكان يعتبره دليلاً على الهبل، الذي يظنّني أعاني من أعراضه، لكنّني لم أكن أهتمّ برأيه..

حدّثني إبراهيم كذلك عن النبي موسى والمعجزات التي خصّه الله بها، فاستوقفتني كثيرًا. فأن تصبح العصا في يديه أفعى تسعى، فذلك ممّا تتعلّق به النفس ولا تشيح عنه أبدًا، أو أن يُنزل للناس مائدة من السماء يستمتعون بأطايبها، فذلك ممّا لا يخطر على بال.. كان إبراهيم بحرًا من العلم بلا ضفاف، يبدأ حديثه فلا ينقطع له كلام، وأنا متعلّق به، أسمع بافتتان كلّ ما يجود به عليّ. تطرَّق حديثه ليلة إلى السياسة، وما يقع منها في بلادنا، فاختصرها في كلام بليغ، وقرَّ في ذهني ولم يبارحه أبدًا، قال لي: «السياسة خداع وأحابيل وأكاذيب لا تنتهي، والدولة امرأة لعوب يستهويها من يكذب أكثر ويتقن خداعه فتنصاع له».. ثم

Twitter: @ketab_n

خفض صوته، وتابع قائلاً: «هناك حادثة معبّرة وبليغة يمكنها أن تختزل فهمي للسياسة، لقد تنازل الأمير أبو بكر بن عمر لابن عمّه الأمير يوسف بن تاشفين على حكم البلاد، بينما توغّل هو عميقًا في الجنوب للقضاء على الفتن، وقد عمد إلى فعل شيء رمزي يعبّر عن ذلك.. لقد طلّق زوجته كنزة، فتزوّجها يوسف بن تاشفين. أتمنّى أن تفهم قصدي، ولو أنّه يبدو بعيدًا عن إدراكك، فما زال عودك طريًّا، لم يقو بعد على الغوص عميقًا في نتانة السياسة دون أن تختنق».

في البيت الكبير، قضيت أيّامًا عدّة، يعجز الذهن عن عدّها، فقد التهيت عن عدّ الأيّام بعد الخرفان، التي أبدًا لم أوفّق يومًا للوصول إلى عددها الحقيقي، ففي كلّ يوم أحصل على عدد مخالف لما حصلت عليه سابقًا.. في أحد الأيّام، بينما كنت أستعدّ للخروج بالماشية، فاجأني الشريف بحضوره المربك، ثم خاطبني بلهجة ودودة، قائلاً:

ـ اليوم ستزور أهلك.. خذ هذين الكيسين معك.

قال ذلك، وهو يشير إلى كيسين ليس ببعيدين عنّا.. ارتميت على يده قبّلتها، وقبل أن أغادره، نبّهني إلى ضرورة إعطاء التبن للأغنام حتى تجد ما تشغل به طواحنها. فعلت ذلك بنشاط وحيويّة، ثم توجّهت نحو صديقي وأخي إبراهيم.. ودّعته ثم انخرطت في المشي نحو وجهتي.. لم أشعر بثقل الكيسين، لقد أصبح جسدي أقوى، وكنت مأخوذًا بلقاء منتظر لأمّي وجدّتي وإخوتي، الذين اشتقت إليهم كثيرًا.. كنت أقطع مسافة طويلة،

Twitter: @ketab_n

ثم أتوقّف قليلاً لأستجمع أنفاسي كي أستأنف مسيري.

وصلت إلى البيت بعد تعب لم أحفل به كثيرًا.. أخذت منّي أمّي الكيسين بكثير من الفرح والامتنان. لقد كانت الأسرة تمرّ بشدّة وضيق، مثلها في ذلك مثل باقي الأهالي، والسبب في ذلك بحسب قول إبراهيم: الصراعات حول سلطة الزمان، التي لا تنتهي إلّا لتستعرّ أكثر حدّة وقسوة.

منذ أن حللت بالبيت، ظلّ الجميع يحملق في خلقتي بكثير من الدهشة والانبهار، وكأنّني حللت عليهم من عالم آخر، أو كأنّني لم أكن أحيا بينهم هنا في هذا المكان منذ زمن لم يمرّ عليه الكثير من الوقت. جدّتي لم تستوعب بعد أنّني أشتغل في بيت الشريف الشرقاوي.. بل لا أحد من إخوتي يصدّق ذلك. لقد ارتبط ذكر الشريف بالمال والجاه والسلطة والدين، بعالم آخر نسمع عنه دون أن نقوى على تخيّله واقعًا حيًّا، يمكن أن نكون أطرافًا فيه، إنّه قريب منّا، لكنّه بعيد بمسافة لا يمكن تخيّلها! كان الجميع يكرّر عليّ السؤال نفسه «هل حقًّا ترى مولاي الشريف الشرقاوي وتحدّثه؟».. أُجيب بالإيجاب، لكنّ الشكّ ظلّ يتراقص على الوجوه، وخاصّة وجه جدّتي التي بدا لها ذلك من علامات الساعة.. أن يختلط العوامّ بالأشراف ويحدّثوهم، فذلك ممّا لا تطيق جدّتي سماعه أو تصديقه.. حدّثتهم عن بيت الشريف وأسرته ممّا عرفته خلال فترة الإقامة بين ظهرانيهم، أو ممّا سمعته من زميلي إبراهيم، أو ممّا اختلقته دون أن أقصد الكذب. كان الكلام ينساب على لساني غير واضع للحدود بين الحقيقة

Twitter: @ketab_n

والخيال، وكنت أعطي لنفسي مكانة بارزة فيما يحدث، فأقول مثلاً «قال لي مولاي الشريف الشرقاوي، أو أشار لي مولاي الشريف الشرقاوي وهو يقول كذا وكذا.. وهكذا دواليك».. ظلّت الدهشة مترنّحة في عيون أفراد أسرتي، وهم يصغون إلى أحاديثي.. بعد ذلك، عمدت إلى جرابي أخرجت منه بعض الأعشاب، التي جمعتها خلال رعيي للغنم.. عرضتها على جدّتي، فذكرت لي أسماءها وعرّفتني بفوائدها ممّا زاد من علمي في هذا المجال.. وبينما كنت منغمسًا مع جدّتي في الحديث عن الأعشاب، فاجأتني متسائلة: «هل حقًّا لمست الشريف؟». ابتسمتُ ورددتُ عليها:

ـ «طبعًا، فعلت. كيف سأقبّل يده إن لم ألمسه»؟

ظلّ الشكّ يداعب جدّتي.. لم تتخلّص منه بشكل نهائي، فالتمست لها العذر، لأنّ مكانة الشرفاء في وجدان الناس وعقولهم لا يمكن تصوّرها، إنّهم يبجّلونهم ويقدّرونهم بشكل كبير. في تلك الأثناء تسلّلت رغبة إلى نفسي دون أن أفصح عنها، تمنّيت من أعماق قلبي أن أصبح «شريفًا».. أعرف أنّ ذلك يُتوارث أبًا عن جدّ، ولا يمكن اكتسابه بأيّ حال من الأحوال، ومع ذلك تملّكني توق كبير لحدوث ذلك. الأدهى من ذلك، أنّ الأمر لم يكن مجرّد أمنية، بل أحسست في أعماقي بأنّ الأمر سيحدث، وأنّ الناس سينادونني يومًا «مولاي أبا يعزى الهسكوري».. هل هي أضغاث أحلام أم نوع من «الهبل»، الذي طالما نعتني به أبي، كلّما لمس منّي اختلافًا عمّا تواضع الناس

Twitter: @ketab_n

عليه؟.. لم أذكر أمنيتي هاته إلى أيّ بشر خوفًا من أن أصبح محطّ استهزاء وسخرية، لكنّ الأمر داعب وجداني بشكل لم أتوقّعه أبدًا.. هل سيحدث ذلك؟ وما السبيل إلى تحقيقه؟ لست أدري! لكنّني تمنّيت ذلك وآمنت به، وربّما سيتحقّق مستقبلاً بشكل لا يتوقّعه أحد.

عاد أبي مساء إلى البيت بعد جولات في دنيا الله، بلا شغل ولا فائدة تعود عليه أو على أسرته، فقط يتّبع هواه ويمضي حيثما عرف أنّ هناك أناسًا يجتمعون لشأن ما، يعجبه لوْكُ الحديث في الأمور الفارغة وتقديم خدماته للناس مجّانًا، حتى يَدْعوه لطعام أو حفل من أيّ نوع كان، إنّه يحسن القيام بكثير من الأمور، لكن عيبه أنّه لا يداوم في عمل شيء بذاته، بل يتنقّل من عمل إلى آخر دون أن يتقاضى أجرًا مقابل ما يسديه للناس من خدمات، يكفيه أن يَدْعوه لجلسات مسائيّة يتداولون فيها الحديث والكيف وبعض الأطعمة.

ما إن وقعت عليّ عيناه حتى تطاير الشرر فيهما.. سألني مستنكرًا:

ـ ماذا تفعل أنت هنا؟

زحفت نحوه.. ارتميت على يده وقبّلتها، ثم أجبته قائلاً:

ـ مولاي الشريف أرسلني بكيسين من الحبوب.

فكّر قليلاً، ثم قال:

ـ كان عليك أن لا تأتي.. كنت عازمًا على زُيارة الشيخ

Twitter: @ketab_n

قريبًا. لقد أفسدت عليّ هذه الزيارة. كنت سأطلب من الشريف شيئًا.

خجلت من كلامه. خفضت عينيَّ نحو الأرض لا أحير جوابًا.. تعجّبت من هذه القسوة التي تستقرّ في قلب أبي، حتى إنّ نفسه لم تحنّ إلى رؤيتي، رغم أنّني لأوّل مرّة أقضي زمنًا طويلاً بعيدًا عن عينيه.. حاولت أن أفهم منبع هذه القسوة، لكنّني عجزت عن ذلك، وقلت في نفسي «حتمًا سيجد إبراهيم تفسيرًا لذلك، حينما أعود سأطرح عليه هذا السؤال».

انكمشت في مكاني، فلم يكن مسموحًا لي بالحديث في حضرة أبي، لقد كان لا يطيق أن يدلي أحد من أفراد الأسرة برأي، سواء اتّفق معه أو اختلف مع رأيه. وحده كان يتحدّث ونحن نصغي إليه، لكنّني لم أحزن كثيرًا على غير عادتي. كان يكفيني أن أستحضر صورة صديقي وأخي المكتسب إبراهيم لتتبرعم الفرحة في دواخلي، ومن هناك تنتشر لتعمّ الجسد كلّه، فتعبّر عن نفسها بابتسامة رائقة تستقرّ على مبسمي.

كان الليل مختلفًا عن سابقيه. لقد افتقدت حديث الكتب وأنين الناي. هذان الأمران اللذان لزما حياتي الجديدة في البيت الكبير، بيت مولاي الشريف الشرقاوي. لم أتحمّل الحديث العادي لأفراد أسرتي، فأويت إلى النوم، لعلّي أجد فيه بعض السلوى في انتظار أن أعود غدًا في الصباح الباكر إلى المكان، الذي أضحى عالمي الجديد. تقلّبت في فراشي لفترة من الزمن. تذكّرت أنّني لم أقم بصلاتي، فلم أنزعج كثيرًا. لقد ربطت ذلك

Twitter: @ketab_n

بوجود صديقي إبراهيم. هنا في بيتنا لا أحد يؤدّيها، فلم أنشغل بالأمر كثيرًا. أبي يفعل ذلك في حضرة الرجال، أمّا في البيت فلا يحفل بذلك. النوم يتسلّل تدريجيًّا إلى أطرافي وأجفاني، التي أصابها بعض الخدر.. ثم ما لبثت أن انقذفت في أحضان النوم، وفقدت الصلة بالعالم من حولي. بغتة رأيت نفسي أمضي في طريق موحش لا حدود له، ممتدّ في اتّجاهات متعدّدة، وفي حواشيه توجد حيوانات شرسة وكأنّها تحرسه ولا تسمح لأحد بالمرور منه. لم أنشغل كثيرًا بوجود هذه السباع، بل كنت منشغلاً أكثر بشيءٍ ما يوجد في نهاية الطريق. أحسست بأنّني أمام اختبار، يجب عليّ أن أجتازه بنجاح. كلّ طريق يؤدّي إلى نهاية معيّنة، غير واضحة المعالم، وكان يتعيّن عليّ أن أختار طريقًا منها، دون أن تكون هناك مؤشّرات تدلّ على الطريق الأفضل. فقط كان عليّ أن أُصغي إلى همس نفسي، إلى قلبي ووجداني وأمضي، لم أتردّد كثيرًا، فقط ردّدت بعض الكلمات في سرّي ثم مضيت، لا أدري كيف شعرت بوجود ظلّ إبراهيم يحلّق فوق رأسي، ويوجّهني نحو الطريق الصحيح.. رفعت رأسي لأتأكّد من ذلك، فلم أظفر بشيء، كان الظلّ يختفي، لكنّه يقودني من طرف خفيّ، لم ترهبني الحيوانات الضارية التي كانت تهدّد وجودي في كلّ لحظة.. أشعر وأنا أمضي أنّني أتفادى في آخر لحظة حفرًا هنا وهناك، كان من الممكن أن أسقط فيها.. لكن ذلك لم يحدث أبدًا.. مضيت في سبيلي، في آخر الطريق كان وجه الشريف بلحيته ناصعة البياض يظهر بقوّة.. منذهلاً كنت أتحقّق من ذلك، لكنّني لم أتأكّد من أيّ شيء. إذ سرعان ما أخذ الوجه

Twitter: @ketab_n

يظهر ويختفي وأنا أتقدّم نحو الأمام.. في لحظة مفارقة، تسلّلتْ أفعى نحوي، وزحفت في اتّجاهي. كاد الرعب يوقف وجيب قلبي، لكنّني تشجّعت أكثر مسنودًا بالحضور القويّ لزميلي إبراهيم. استمرّت الأفعى في زحفها حتى أصبحت إزائي. حملقت فيها، فبدت لي أفعى جميلة ذات وجه لطيف، ولا يكمن فيه أيّ شرّ، ثم ما لبثت أن لامستني بجلدها الأملس الناعم.. استأنست بها للحظات، ثم ما فتئت تلك الأفعى أن أثبتت فكّيها في ذراعي، وطفقت تحقنني بسمّها بلطف وتمهّل. لم أخف وإنّما استغربت أن تفعل ذلك من دون أن تقضي عليّ. ما إن انتهت الأفعى من فعلتها، حتى تسلّلت متخفّية في مكان لا أدري عنه شيئًا! لكنّني في تلك اللحظة بالذات، فقدت هدوئي وطفقت أصرخ بأعلى صوتي، غير أنّ صوتي كان مخنوقًا لا يكاد يتجاوزني، وكأنّ يدًا ما تكتم أنفاسي.. بعد صعوبة وشدّة، استطعت أن أفكّ نفسي من براثن هذا الكابوس المزعج.. وجدت نفسي أتصبّب عرقًا.. لعنت الشيطان الرجيم، حاولت أن أعود إلى النوم في انتظار أن يحلّ الصباح بضوئه الكاشف للغمّ والهمّ، والمجلي للهموم والأحزان، لكنّ النوم تعذّر عليّ، لم يكن سهل المنال، فبتُّ ليلتي أسبح في دروب التفكير، أفكّر في أمر وفي نقيضه. استرجعت حياتي بتفاصيلها، وخاصّة الفترة الأخيرة التي قضيتها في البيت الكبير، توقّفت تحديدًا عند إبراهيم. شغلتني شخصيّته وعلمه وطلاقة لسانه. تمنّيت أن أمتلك قدرًا ممّا تيسّر له، لكنّني ما إن توغّلت في ذلك حتى احتواني النوم في حضنه اللدن.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

على الوتيرة نفسها، استمرّت حياتي في البيت الكبير، أرعى الغنم نهارًا وأداوم على السمر ليلاً رفقة صديقي ومعلّمي إبراهيم، الذي بفضله أصبحت أعرف الكثير من الأمور. لقد انبهر بقدرتي على الفهم والحفظ وهضم كلّ ما يخبرني به. تدريجيًّا أصبحت لي معارف معتبرة بمسائل لا يعرفها إلّا المتعلّمون والفقهاء، اهتممت أكثر بمسائل تتعلّق بالقدرة على التفكير والجدال والفهم، لم تغرني كثيرًا أمور تخصّ العبادات، لكن مسائل العقيدة استهوتني إلى حدّ كبير، ترسَّخ في ذهني تدريجيًّا أنّ الأهمّ أن يكون لدى الإنسان إيمان عميق بالذات الإلٰهيّة وعشق لها لا تشوبه شائبة، ولا تهمّ بعد ذلك الطريقة التي يمكن للمرء التعبير بها عن ذلك الحبّ. أصبحت لديّ فكرة واضحة عن الفرق بين الفرق الإسلاميّة، وخاصّة فرقها الكبيرة السُّنَّة والشيعة والخوارج. وجدت في نفسي قربًا إلى فرق التصوُّف بشتّى أنواعها، بدت لي

Twitter: @ketab_n

فرقًا تهتمّ بالوجدان والقلب ولا تهتمّ بسفاسف الأمور. زاد هذا الاقتناع تجذّرًا في نفسي لمّا حدّثني إبراهيم عن زهدها في سلطة الزمان وعدم انخراطها في التطاحن، الذي استعرّ أواره في المدّة الأخيرة بين الفرق والجماعات من أجل الظفر بالخلافة، فجلّ أقطابها في البلد وفي بلاد الأندلس التجأوا إلى أركان في المساجد، وعكفوا على الذكر والتسبيح لله تعالى راجين منه تجنيب البلاد والعباد موبقات الحرب والمجاعات، التي ما فتئت تصيب البلاد عامًا بعد عام، بسبب عدم وجود الأمن في الطرقات والمسالك، وانشغال الرجال بالحروب بدل التفرّغ للأرض لاستخراج كنوزها بالجد، والعمل المتواصل حرثًا وزرعًا وحصادًا.

استمررنا على هذه الحال زمنًا طويلاً، كنت أكوّن فكرة تدريجيّة عن الشريف الشرقاوي وثروته وعائلته والناس الذين لا يكفُّون عن زيارة بيته. لقد بدا لي رجلاً مهمًّا جدًّا أكثر ممّا توقّعت، أو يتوقّع أحد ممّن يعرفه، لم تكن الوفود تنقطع عنه، كلّ يوم يحلّ وفد جديد، يحطّ الرحال في البيت الكبير فتُذبح الذبائح وتُعدّ الولائم. الجميع يأكل ويشرب ويرفع يده بالدعاء للشريف ونسله وأسلافه الصالحين.. لقد اعتدت هذه الأجواء، وكان بعضها يعجبني، فقط كان يحزُّ في نفسي أن يُذبح كلّ يوم تقريبًا واحد من رعيّتي، لذا تدريجيًّا عافت نفسي اللحوم، حتى لم أعد قادرًا على وضع قطعة منها في فمي، والسبب المباشر الذي أدّى إلى ذلك هو أنّه كان هناك خروف يلازمني بشكل كبير، حين نكون في المرعى، سرعان ما ينفصل عن القطيع

Twitter: @ketab_n

ويدنو منّي بشكل تدريجي حتى يلامسني، فيظلّ تحت بصري لا يفارقه، أنظر إلى ملامحه الوديعة فأزداد تعلُّقًا به، يبدو لي في بعض الأحيان وكأنّه بشر يستوعب ويعي كلّ ما حوله. لقد كنت قد سمعت إبراهيم يومًا يتحدّث عن فرقة يشكّ الجميع في صحّة دينها، تدّعي بأنّ الأرواح تتناسخ، وأن لا شيء يضيع، فحينما يموت شخص ما تهيم روحه في الأجواء حتى توشك ولادة جديدة على الحدوث، فتتسلّل الروح إلى الجسد الضئيل المولود حديثًا، يتساوى في ذلك الإنسان والحيوان والنبات، بمعنى أنّ روح إنسان قد تستقرّ في حياتها الثانية أو الثالثة داخل جسد حيوان أو شجرة. حين كنت أتأمّل الخروف الذي أضحى يلازمني، كنت لا أشكّ في أنّ في جسده روح صبيّة طيّبة فقدت حياتها فجأة بسبب إهمال ذويها، وكنت أتدبّر نفسي فأعتقد جازمًا بأنّ روح حيوان مسالم تسكنني، قد تكون روح حمل أو روح سلحفاة أو غيرهما، أم تكون روح كلب ذليل، لست أدري؟.. المهمّ أنّ هذا الخروف اختفى عن نظري صباحًا.. بحثت عنه بين عناصر القطيع، فلم أعثر له على أثر.. خفق قلبي بشدّة، شعرت بألم مفاجئ ينغرس في قلبي، توجّهت رأسًا نحو إبراهيم، وبلهفة سألته:

ـ أبحث عن خروفي ولا أجده.

مستغربًا، ردّ عليّ:

ـ كلّ الخرفان لك، فأيّها تقصد.

قلت متألّمًا:

Twitter: @ketab_n

ـ الخروف الذي كان يلازمني دومًا.

لم يفقه إبراهيم قصدي، لكنّه ردّ عليّ:

ـ لا تشغل بالك بالأمر، فقد يكون الشريف قد ذبحه ليلاً، لقد جاءه ضيوف ليلة البارحة، وقد فطنت إلى ذلك من خلال الضجّة التي أحدثتها الكلاب ليلاً.

وكأنه أصابني بخنجر في كبدي.. شعرت بألم كبير يعتورني. صدرت عنّي أنّةٌ قويّة وحزينة، عيناي اغرورقتا بالدموع.. استغرب إبراهيم حالي، فقال مواسيًا:

ـ لا ينفع ذلك يا أخي، فالخرفان خلقها الله لنذبحها وننتفع بلحومها، ولا يليق بك أن تحزن عليها هكذا.

لم أردّ عليه بشيء، وإنّما لملمت ألمي ووجعي وقصدت الحظيرة، لكي أُخرج الغنم وأسرح بها في دنيا الله الواسعة، في انتظار أن يلتئم الجرح الغائر الذي أحدثه في نفسي هذا الحدث الحزين. استغربت أن لا يشعر إبراهيم بمثل ما أشعر به، فهو كائن حيّ يرافقنا صباحًا مساءً، يُذبح غدرًا ويُولم عليه عابرون، ولا يحرِّك ذلك في نفس إبراهيم صديقي وأخي أيّ شعرة، ما أقسى قلوب البشر! إنّها مقدودة من حجارة صلدة لا تتأثّر بصروف الزمان، ولا تحرِّكها رياح المواجع والأحزان.

انشغلت بما يعتمل في نفسي الثكلى، وانغمست في دنيا الصمت الأثير، الذي يستهويني أكثر من غيره كلّما ألمَّ حزن بالنفس، لكنّ إبراهيم الذي انتبه متأخّرًا إلى ما أعانيه من جرّاء ما

Twitter: @ketab_n

حدث، تقدّم نحوي بخطوات متأنّية، ثم بدأ في مواساتي بما يليق بشخص فَقَد عزيزًا، لا يملك نحوه صبرًا. غير أنّني أمام استغرابه، طلبت منه أن يستخرج نايه ويبدأ في العزف. نظر إليّ إبراهيم نظرات معبّرة، وكأنّه بذلك يتّهمني بالجنون، لكنّني أصررت على طلبي قائلاً:

ـ أرجو أن تلبّي رغبتي، فأنين الناي سيخلّص نفسي من الوجع المكين.

لم يجادلني إبراهيم كثيرًا، إذ سرعان ما اختار صخرة مناسبة جلس عليها، ثم امتدّت يده إلى جرابه وأخرج منه القصبة، ثم وضع الجراب جانبًا وشرع يعزف بالقصبة، ينفخ فيها من روحه، فتتحوّل أنفاسه إلى نغمات متتالية، طوّحت بنفسي في عوالم لا حصر لها. شهقت باكيًا دون قصد منّي، ومع ازدياد الغناء والتوغُّل في الإيقاع، تضاعف نشيجي. بكيت بحرقة، بكيت خروفي المغدور، بكيت أهلي الفقراء الذين يتلاعب بهم الزمان.. بكيت إبراهيم الذي ليس مكانه هنا وراء البهائم، وإنّما في مكان أفضل، يعلّم الناس ما فاض به عقله وقلبه، والأهمّ من ذلك بكيت مستقبلي الذي أراه متعبًا وبلا معالم.. أرى فيه طرقًا شتّى سأقطعها، ومحنًا سأعاني منها، ورجالاً سألتقي بهم.. أكثرهم سيهينونني، لكنّني سأتحمّل كلّ ذلك بصبر وذلّة.

بعد أن سكبت كثيرًا من الدموع وأفرغت نفسي من الوجع والحزن، وتخلّصت من التشنّج الذي يرافق حالتي هاته، هدأت نفسي قليلاً.. ناولني إبراهيم بعض الماء.. عببت منه بعض

Twitter: @ketab_n

الجرعات.. انساب في جوفي باردًا، فأطفأ الجمار المتَّقدة في دواخلي.. ارتميت على الأرض لبعض الوقت، ثم ما لبثت أن استقمت في جلستي.. مأخوذًا بما رآه من حالي، قال إبراهيم محدِّثًا إيّاي:

ـ لك يا أبا يعزى نَفْسٌ طاهرة.. هنيئًا لك بها.

لا أعرف إن كان عليّ أن أسعد بما قاله إبراهيم أم أحزن، لكنّني كنت متأكّدًا بأنّ ما حدث زاد ثقة إبراهيم فيّ، وأنّه سيعاملني في المستقبل بكثير من الحرص والتقدير. لقد ظهر في أعماق عينيه أنّه يغبطني على ما أمتلكه من عفويّة وصدق عاطفة وسماحة روح، لكنّه ما لبث أن أضاف متنهّدًا:

ـ لكنّك ستتعب يا أخي.. ستتعب كثيرًا.. الناس في عصرنا هذا ذئاب مفترسة، لا يتوانون عن افتراس لحوم إخوتهم من بني البشر، كيف ستحيى بينهم أنت الذي ترقّ نفسك لبهيمة بكماء، اعتاد الناس التهام لحومها بمناسبة وبلا مناسبة؟

لزمت الصمت محتميًا بأسواره.. تدريجيًّا، استعدت قواي النفسيّة والجسديّة.. توقّف إبراهيم عن الكلام للحظات، ثم اتّخذ هيئة من سيقول حديثًا مهمًّا. عرفت أنّه يوشك أن يقدم على شيء لم يفعله من قبل. ما حدث قوّى عرى الصداقة والأخوّة بيننا، فحلّ ذلك عقدة لسانه.. نظر إليّ نظرة معبِّرة، ثم قال:

ـ اسمع يا أبا يعزى.. والله لقد أحببتك من كلّ قلبي، وتمنّيت من صميم فؤادي لو كنت أخًا لي، لذا سأحدِّثك بأمر لم أحدِّث به غيرك من قبل.

Twitter: @ketab_n

لزمت الصمت وأنا مطرق الرأس. توقّف كلامه للحظات، ثم أضاف:

ـ بالإضافة إلى علاقتي بالفقه والفكر، فأنا كذلك لي اهتمام بالسياسة، وأنا هنا متخفٍّ عن الأنظار بهذه الطريقة، وسيأتي يوم سيكون لي وللجماعة التي أنتمي إليها شأن عظيم. . إنّنا نعدّ العُدّة للهجوم على مراكش وإسقاط الأمير، الذي يحكمها، فقط ننتظر الوقت المناسب الذي لن يتأخّر طويلاً، وأنا ضمن المجموعة الضيّقة التي ستحكم البلاد بعد سقوط حكم المرابطين، ابن الشريف الشرقاوي اسمه مولاي علي، وهو أحد رجالنا الأقوياء، يتلقّى العلم في فاس وسيعود قريبًا إلى هنا. أخبرك بذلك، لأنّني أتوقّع أن أغادر هذا المكان قريبًا. سأعود إلى موطني لتجنيد الناس ونشر الدعوة الجديدة فيهم. وأعرف حقّ المعرفة أنّ رحيلي المفاجئ سيؤثّر في نفسيّتك، لذا آثرت أن أُخبرك من الآن حتى تستعدّ له، بما يحدّ من انفعالك وحزنك.

أخذت أتطلّع إلى إبراهيم بانبهار. لقد صدق حدسي، فلا يمكن لمن يمتلك كلّ هذا النصيب من المعرفة والعلم أن يزاول هذا العمل التافه.

استمررت في صمتي لا أستطيع النطق بكلمة. لقد كبَّل لساني ما جاد به إبراهيم من كلام. لقد أسعدني وأحزنني حديثه في الوقت نفسه، أسعدني لأنّني أحببت إبراهيم وأتمنّى له كلّ خير، أتوقّع أن ينجح في مسعاه، فهو رغم ما يمتلك من علم وانتمائه لعائلة محترمة، فأبوه فقيه عالم، بمعنى أنّه تربى تربية منعّمة بعيدًا

Twitter: @ketab_n

عن شظف العيش وشقائه، فإنّه مع ذلك لم تأنف نفسه من القيام بهذا العمل التافه، أو أن يعيش في كوخ حقير ويصاحب راعيًا أمّيًّا جاهلاً تافهًا، ما زالت صفة العبد تلتصق به بسبب لونه الأسود.. أمّا حزني عليه، فمنبعه هذا الخبر الذي نزل عليّ كالصاعقة، والذي لست أدري كيف سأتعامل معه، حال حدوثه والمتعلّق برحيله الوشيك. لقد اعتدت وجود إبراهيم بجانبي، ومن الصعب أن أتحمّل فراقه، لقد أضاف إبراهيم إلى كلامه بعض التفاصيل قائلاً بأنّ هناك شخصًا سيعوِّض مكانه، لكن يا ترى هل يستطيع كائن من كان أن يعوِّض إبراهيم؟ يا حرّا قلباه.. ما لهذه الدنيا لا تكفّ ولا ترعوي، ولا تمنحني مهلة واحدة لاستجماع أنفاسي.. فمن فراق إلى فراق، ومن حسرة إلى أخرى! لم أُظهر ضعفي أمامه، لم أرغب في أن أثقل على نفسه بوجعي. شعرت لحظتها باليتم وكأنّني أفقد أبًا أو أمًّا، فإبراهيم أضحى بالنسبة لي بمثابة الأخ والصديق والأب والأمّ، يحنو عليّ ويعلّمني ممّا لديه من علم، ويتحايل عليّ في تناول الطعام حتى آخذ كفايتي، ويؤثرني بغطائه مدّعيًا أنّه لا يشعر ببرد الليل، وأنّه يفضِّل أن ينام متخفّفًا حتى يقوى على النهوض لصلاة الفجر، وقيام الليل، لن أظفر أبدًا بشخص مثله، فقط عزّيت نفسي بأمل لقائه في المستقبل، لقد وعدت نفسي أنّني سأسعى إليه إذا ما تيسّرت الظروف لذلك، وأجدّ في البحث حتى أصل إليه..

عدنا مساء بالماشية إلى حظائرها. كان كلّ منّا يقاوم الحزن في نفسه، لقد شعر إبراهيم بوقع ما حدّثني به، ولمست أنّه ندم عن ذكر ذلك، أحسست بأنّه لا يقوى هو كذلك على فراقي، لم

Twitter: @ketab_n

نتحدّث تلك الليلة كثيرًا. كلٌّ منّا اكتفى باجترار ما في نفسه من هواجس ولواعج، لكنّنا قبل أن ننقذف في ملكوت النوم، أخبرني بأنّ قدوم مولاي علي ابن مشغّلنا مولاي الشرقاوي وشيك، وقد يحدث غدًا.. وأنّني سأُسعد بالتعرُّف عليه، فهو بحسب ما قاله إبراهيم شخص ودود غزير العلم شديد البأس قويّ العزيمة، له قدرة فائقة على التخطيط وتنفيذ ما يفكِّر فيه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

انشغلت بخبر زيارة ابن الشريف الشرقاوي للبيت انشغالاً كبيرًا.. تمنّيت بجماع قلبي أن أتملّى في هذا الشخص الذي يتحدّث عنه صديقي إبراهيم بكلّ هذا التبجيل والتقدير. لا يمكن إلّا أن يكون إنسانًا متميّزًا.. كالعادة، سقتُ الماشية نحو مواطن الكلأ واخترت لنفسي مكانًا مناسبًا أشرف عليها منه. كان إبراهيم يلوح لي من بعيد بقامته القصيرة، يقود قطيعه نحو المكان المناسب للرعي. تتبّعت حركاته بكثير من الفرح، منتظرًا أن ينتهي من ذلك، لأجتمع به ونلوكَ أطراف الحديث كالعادة، أو نصغي إلى عزفه الجميل.. تحصّنت بالصبر حتى انتشرت الأبقار والخيل في المرعى بالشكل المطلوب، ثم التحقت بإبراهيم، اخترنا مكانًا مناسبًا، يشرف على الماشية، وفي الوقت نفسه يطلّ على الطريق. كنّا نتوقّع ظهور ابن الشريف في كلّ

Twitter: @ketab_n

لحظة، لقد أخبرني إبراهيم بأنّه قد يحلّ بيننا في أيّ وقت وآن. جلسنا نتحدّث في أمور شتّى، لكنَّ حديثنا كان خجولاً، لا يقوى على التوغُّل عميقًا في أيّ موضوع نطرقه، فقط كان يلامس المواضيع بكثير من الحياء.. حقيقة، لقد كان العقل والقلب متعلّقًا بالقادم السعيد، الذي قد يفاجئنا حضوره في أيّ لحظة.. كان كلّ منّا يخاتل الآخر ويختلس النظر نحو الطريق، الذي يفترض أن يقطعه مولاي عليّ، لكن لا أحد منّا كان يرغب في إظهار لهفته.

هذا الانتظار لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما لاح لي فارسان قادمان من بعيد، لفتُّ نظر إبراهيم إلى ظهورهما المفاجئ، فقال بكثير من الوثوق:

ـ إنّه مولاي عليّ.

مستفسرًا، أردفت قائلاً:

ـ ومن الشخص الذي يرافقه؟

دون تفكير ردّ عليّ:

ـ إنّه خادمه.

لحظتها، تمنّيت لو كنت خادمًا لإبراهيم، أرافقه في حلّه وترحاله، لكنّني لم أقوَ على ذكر ذلك، فقط رددته في دواخلي وابتهجت نفسي به.. فأن أكون دومًا برفقته، أخدمه وأتعلّم منه الكثير ممّا أجهله، فذلك أقصى ما تتمنّاه نفسي. لمْ أنبس ببنت

Twitter: @ketab_n

شفة، فقط تماهيت مع أحلامي، وأنا أتطلّع إلى الفارسين القادمين من بعيد، تتبّعت حجمهما الذي أخذ ينمو تدريجيًّا.. في البداية، لم يكن شيئًا يُذكر، فإذا به مع توالي الوقت أخذ في التشكُّل، حتى استقام في صورة زاهية لفارسين، لا شكّ سيكون لهما شأن في مستقبل الأيّام. وصل الرجلان إلى مكان قريب من المرعى، فهرولنا نحوهما، إبراهيم في المقدِّمة، وأنا في الخلف أقتفي خطواته، دون أن أجرؤ على التقدُّم عليه، لقد قنعت نفسي حتى في هذا الوضع بوظيفة الخادم التابع لسيّده، وقد رضيت بذلك واطمأننت إليه. كان مولاي عليّ في أبهى حلّة، يرتدي برنسًا أسود، يغطّي جبّة بيضاء زاهية اللون، ويضع حزامًا واسعًا موشّى، فيما يحيط بكتفه حبل أسود يتدلّى منه خنجر، يبدو غشاؤه موشّى بنقوش مختلفة الأشكال.. يضع على رأسه عمامة سوداء، عرفت فيما بعد أنّها تميّز الشرفاء ولا يضعها غيرهم، وهي علامة على النسب النبوي الشريف، فيما كان مرافقه يعتمر عمامة بيضاء، وكان لباسه متواضعًا بالمقارنة مع لباس مولاي عليّ، لكنَّ سيفه كان أطول ونظراته حادّة وقويّة، وهو أسمر اللون يميل إلى السواد، عكس ابن الشريف الذي كان بياضه ملعلعًا، حتى إنّ المرء ليحار من شدّة بياضه، وكأنّ وجهه لم تلسعه أشعّة الشمس يومًا ولا التصق به غبار. لا أدري كيف سافر بي الذهن حينئذ نحو بيت الشريف، واستحضرت مخيّلتي المريضة ابنة الشريف فاطمة الزهراء، التي أخبرني عنها سابقًا صديقي إبراهيم، وقال بأنّ جمالها يُصيب

Twitter: @ketab_n

بالإغماء، تطلّعت إلى أخيها فقط وكاد يغمى عليّ، فكيف سيكون عليه الحال إذا وقع بصري عليها، ومنذ ذلك الحين تمنّيت أن لا يحدث ذلك، لأنّه إن وقع، سيكون من الصعب عليّ تجاوزه، ستكون تلك اللحظة فارقة في حياتي وربّما تكون معها نهايتي الحتميّة.. ترجّل مولاي عليّ من على صهوة فرسه، وارتمى في حضن صديقي إبراهيم، وحيّاه وكأنّه صديق عزيز فارقت بينهما أحوال الزمان، والتقيا بعد فراق طويل، فيما لم يترجّل مرافقه، بل حيّى إبراهيم من مكانه على ظهر حصانه، في لحظة مربكة لم أتوقّعها أبدًا، التفت إبراهيم نحوي وناداني قائلاً:

ـ أبا يعزى.. تقدّم.

مرتبكًا ومقيّدًا بالحياء، دلفت نحوه، توقّفت بالقرب منه، فأشار إليّ:

ـ هذا صديقنا الجديد أبو يعزى الهسكوري، سأحكي لك حكايته فيما بعد.

ـ تقدّم مولاي عليّ للسلام عليّ، فارتميت على يده لأقبّلها، لكنّه خلّص يده منّي وهو يقول:

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لا تفعل ذلك ثانية.

استغربت الأمر، فلا يمكن أبدًا إلّا أن أقبّل يد الشريف وأيدي أبنائه، هكذا تعلّمت وعلى هذا الديدن شببت، فكيف

Twitter: @ketab_n

يرفض ذلك! احترت في أمري، وظللت جامدًا في مكاني أحملق في الأرض.. لم ينشغل مولاي عليّ وإبراهيم صديقه بالأمر كثيرًا، إذ إنّهما سرعان ما انخرطا في حديث ودّي، أنهياه بأن أخبر مولاي عليّ صديقي إبراهيم بأنّ لهم جلسة في المساء، سيحضرها كثير من الناس، وفي التفاتة معبّرة وكريمة، أضاف قائلاً:

ـ أحضر معك صديقنا أبا يعزى.

قال ذلك وامتطى فرسه، واستأنف سيره نحو البيت الكبير.

حقيقة، هناك أناس يغيّرون حياتك ويقلبونها رأسًا على عقب، ولا يمكن أن تمضي في حياتك بعد لقائهم وكأنّ شيئًا لم يحدث. هذا ما حدث لي منذ اللحظة التي وقع فيها بصري على مولاي عليّ. شعرت بشيء ما يتغيّر داخلي. لم أتوقّع أبدًا أن يكون هناك أُناس بمثل هذا الحضور القوي والبهاء الظاهر. لقد صدق إبراهيم حين وصفه بما وصفه به، بل إنّه يفوق ذلك بكثير، لقد انشغلت بشخصه الباهر، إنّه تملّك فؤادي بشكل لم أتوقّعه، لقد أحببت الرجل، وتمنّيت لو أنّ حياتي ارتبطت به بأيّ شكل من الأشكال. عدنا أنا وإبراهيم إلى الرعي، لم نتحدّث كثيرًا.. بدا لي أنّ ما حدّثني عنه سابقًا وشيك الحدوث، وأنّ مغادرته للبيت الكبير لم تعد سوى مسألة أيّام. لا أدري كيف انقلب حالي، ولم أحزن كثيرًا، لقد وجدت السلوى في الشريف مولاي عليّ الذي تعلّق به قلبي.. صورته

Twitter: @ketab_n

لم تعد تفارق ذهني، بين لحظة وأخرى تطفر أمامي قويّة ولامعة، عيناه صافيتا البياض، يستقرّ لمعانهما في سويداء قلبي. ذلك الجبين العريض يفتنني، وتلك الملامح المتناسقة الهادئة تكاد تطيِّر جزءًا من عقلي.. لاحظ إبراهيم حالة الشرود التي تتبدّى على وجهي، فخاطبني قائلاً:

ـ أين شرد ذهنك يا صديقي.. يبدو أنّك تأثّرت بشخصيّة مولاي عليّ. الجميع يحدث له ذلك، لهذا له الكثير من الأتباع في جميع المناطق التي حطّ به الرحال وخاطب فيها الناس، كما يمتلك لسانًا فصيحًا مقنعًا، يستطيع في طرفة عين إقناع مخاطبيه بما يؤمن به..

لم أردّ على كلام إبراهيم بكلمة، وإنّما استمرّيت في الإصغاء، فأضاف قائلاً:

ـ ستتاح لك الفرصة هذه الليلة للاستماع إليه وستزداد به تعلُّقًا.

مساء، عدنا بالماشية إلى الحظائر.. توجّهنا طرًّا نحو الكوخ لكي ننال قسطًا من الراحة، ثم نستعدّ للقاء الموعود. عمد إبراهيم إلى بعض ملابسه وأهداني إيّاها. رفضت بداية قبولها، لكن بعد إلحاحه عليّ، أخذتها منه وارتديتها، فبدوت أمام نفسي شخصًا مختلفًا، لقد رأيت نظرات الإعجاب في أعين إبراهيم، فرغم قصر ملابسه، وطولي الذي لا يبدو أنّه ينوي التوقّف يومًا، فإنّني شعرت بالاختلاف، ومنحتني الثياب الكثير

Twitter: @ketab_n

من الثقة في النفس، التي أحتاج نصيبًا كبيرًا منها خاصّة خلال هذه الليلة المميّزة، فلأوّل مرّة في حياتي أجد نفسي وسط أناس مهمّين يفكّرون في أشياء خطيرة لم تخطر لي أبدًا على بال. سألتزم الصمت والهدوء، وأصغي إلى ما يُقال.

حان الوقت المحدّد، فتسلّلنا تباعًا نحو البيت الكبير، وجدنا داخله الكثير من الخدم ينخرطون في حركة دائبة، يتنقّلون من مكان إلى آخر في نشاط وحيويّة ملحوظيْن، أشار إلينا خادم بأن نتبعه، فمضينا خلفه، فإذا به يقودنا نحو غرفة منعزلة، وجدناها غاصّة بالمدعوّين، لقد سبقنا كثير من المدعوّين نحو المكان، تعثّرت في خطواتي وأنا ألج هذا المكان المجلّل بالثراء. في داخله كلّ شيء مبهر، لم أستطع النظر بشكل اعتيادي في المكان من حولي، ما زال الخجل يكبّلني. اقتعدت مكانًا بجانب صديقي إبراهيم، الذي بدا لي أنّه يعرف جميع الضيوف تقريبًا، كان يتبسّط معهم في الكلام، وهم يتحدّثون عن أمور شخصيّة ويكثرون من التعاليق الطريفة، التي تنتزع الضحك من بعضهم والابتسام من بعضهم الآخر. كنت أتوقّع مجلسًا كئيبًا وجادًّا، وإذا بتوقّعي يخيب منذ اللحظات الأولى. تمسّكت بالصمت الذي لذت به، كي أحصّن نفسي من أيّ خطأ محتمل. بعض فترة من الصخب الذي ارتفع في أجواء الغرفة، حتى أصبحت مثل مكان عمومي شبيه بالسوق، ساد بغتة صمت عميق وغريب، لا أحد يمكن أن يتوقّع حدوثه بعد الضجّة الكبيرة التي كانت إلى وقت قريب تتسيّد المكان. انتبهت مرهف الحواسّ

Twitter: @ketab_n

إلى ما يحدث، فإذا بالشريف مولاي عليّ يدخل الغرفة، تطلّعت الأبصار إليه وتعلّقت به بنوع من الإصرار، فلم تعد تحفل بسواه، حيّانا بتحيّة الإسلام، فرددنا عليه تحيّته. تقدّم بخطوات رصينة وثابتة نحو مكان أُعدّ له سلفًا، فجلس، وقد جمع عليه أطراف ثيابه الزاهية، ثم انخرط في تمتمة لا نكاد نسمع منها شيئًا، ختمها بأن مرّر كفّيه على وجهه، وقبّل أطراف أصابعه، ثم بدأ الحديث قائلاً: «اعلموا معشر الموحّدين المؤمنين الصادقين أنّ الله اختاركم لأمر جلل وخصّكم به، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خاصّة بعد أن طغى الحكّام وعاثوا في الأرض فسادًا.. إنّهم يدّعون زورًا وبهتانًا إقامة شرع الله، والحقيقة أبعد من ذلك بكثير، حتى إنّهم لا يفهمون هذا الشرع الذين يدّعون الحرص على تطبيقه، فهم لم يلمُّوا إلّا بالقشور من خلال اهتمامهم بالمذهب المالكي وحده وإهمال باقي المذاهب، وكأنّها تخصّ غير المسلمين، ودعوتنا تقوم على عدم تفضيل مذهب على آخر، فالحكمة ضالّة المؤمن، أينما وجدها كان أحقّ بها، فنحن سنجتهد بإذن الله في الأخذ بالمذهب المالكي، ولكنّنا لن نحصر أنفسنا فيه، ففي المذهب الأشعري ما هو حريّ بنا أن نقتبسه ونطبّقه خاصّة في مجال العقيدة، كما أنّنا لن نضرب صفحًا عن بعض آراء المعتزلة، التي تعمّق في النفس الأدلّة العقليّة المبرهنة على صلاح العقيدة ودوامها، وحتى مذهب الشيعة الذي يعاديه الجميع تقريبًا، ففيه أمور لن نشيح عنها بوجوهنا، فنحن أحقّ بحبّ آلِ البيت من

Twitter: @ketab_n

غيرنا، وسنتمسّك بعصمة الإمام الذي لا يصحّ إيمان المسلم عندنا بدون معرفته وتمجيده والتذلّل له وانتظار ظهوره، لأنّ رسولنا الكريم جدّنا المصطفى، خير الخلق أجمعين، أخبرنا بأنّ الإمام سيظهر في آخر الزمان ليصلح ما أفسده المفسدون. ثم، فلننظر إلى العبد الذي اغتصب سلطة الزمان رغم عدم أحقّيّته بها، ولنتمعّن في العيوب التي تطعن في أهليّته، فهو أبعد ما يكون عن النسب الشريف، وعندنا لا تصحّ الإمامة والخلافة إلّا لمن كان منتسبًا للدوحة النبويّة الشريفة، ثم إنّه رجل جاهل، لا حظّ له من علم، فكيف سيحرص على تطبيق شرع الله وهو جاهل به، وهذا ممّا سمح للفقهاء الجهلة المتعصّبين بأن يحكموا قبضتهم عليه، ويفتوا عليه بأمور ما أنزل الله بها من سلطان».

استمرّ الحديث على هذه الوتيرة، أفهم بعضه ويستعصي على ذهني الكثير منه، لكنّني بيّتُّ في نفسي النيّة على أن أسأل إبراهيم عمّا استعصى عليّ فهمه..

في ختام خطبته، حمد الله وأثنى عليه، ورفع الدعاء للموحِّدين المؤمنين بالنصر والتمكين، والدعاء على المرابطين المغتصبين للحكم بالبوار وشرّ الخاتمة..

رفعنا أكفّنا مردّدين وراءه «آمين». ثم ما لبث الخدم أن أدخلوا أواني الطعام، وبدأ الجميع في التهامه بكثير من الجدّ، الذي يجعل من يراهم لا يظنّ أنّهم إلى حين قريب كانوا

Twitter: @ketab_n

يتداولون في أمور جهاد النفس والزهد في الدنيا ومفاتنها. لم تمتدّ يدي إلى الطعام، لكنَّ صديقي إبراهيم حرّضني على ذلك، فمددت يدي متردّدة نحو بعض الخضر، التي كانت تحيط باللحوم، وكانت متوافرة بكثرة أدهشتني.

بعد الانتهاء من طعام العشاء، تسلّلت صحبة إبراهيم إلى كوخنا، وحديث مولاي عليّ يتردّد في ذهني وصورته المبهرة شديدة الصفاء متعلّقة بذهني. لم نستطع النوم تلك الليلة، وإنّما استمرّينا في الحديث إلى وقت متأخّر، وأنا أحاول أن أفهم من إبراهيم ما استغلق عليّ فهمه، سألته عن الفرق بين السُّنّة والشيعة، فأخبرني بأن لم يفرّق بينهم سوى الصراع على سلطة الزمان، وشرح لي أنّه يقصد الخلافة التي يعتبر الشيعة عليًّا كرّم الله وجهه أحقّ بها من باقي الخلفاء الراشدين، فيما بعد بنوا مذهبًا متمايزًا عن مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، أهمّ ما يرتكز عليه الإيمان بالإمام الغائب، الذي ينتظرون ظهوره في كلّ وقت وآن.. سألته كذلك عن الخوارج، وقد جاء ذكرهم في حديث جانبيّ بين الضيوف، فأخبرني بأنّهم ممّن كانوا يتشيَّعون لعليّ، لكنّهم خرجوا عنه بعد أن قبل بالتحكيم. لم أستوعب هذه الألغاز كلّها، فضربت عنها صفحًا، واهتممت بما جاء في حديث مولاي عليّ، فسألت إبراهيم:

ـ من كان يقصد الشريف بالعبد الذي اغتصب الحكم؟

ابتسم إبراهيم، وردّ قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ في الحقيقة، لم يكن الشريف موفّقًا في هذا الأمر، لكن لا بأس من ذلك، فالسياسة تجيز في بعض الأحيان أمورًا تخالف مبادئنا، لقد كان يقصد يوسف بن تاشفين، لأنّه أسمر اللون يميل إلى السواد، جعد الشعر، وهذا ما يجعله في نظره عبدًا لا يستحقّ الملك، رغم أنّنا كنّا مرارًا في حديثنا نصرّ على أنّ الناس سواسية، ودومًا نردّد قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه «متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كان الجمع الذي حضرت أطواره في البيت الكبير إيذانًا بتغييرات عميقة ستحدث في حياتي، أوّلها أنّني بدأت أستعدّ لمفارقة صديقي وأخي إبراهيم، الذي بدا ذهنه منشغلاً أكثر من أيّ وقت مضى، فبدا شرِدًا واكتست ملامحه بعض القسوة، شعرت أنّ سنينًا عدّة أُضيفت إلى عمره، فبدا رجلاً كهلاً، يحمل على عاتقه هموم الدنيا والآخرة.

قضى مولاي عليّ في ضيافة أسرته أيّامًا قلائل، ثم غادرنا متّجهًا نحو وجهة لا يعلمها إلّا الله، فلقد أصبحت على يقين بأنّ إبراهيم وجماعته يضمرون أكثر ممّا يعلنون، حفاظًا على سرِّيَّة نشاطهم، ربّما تكون وجهته مدينة فاس التي يتلقّى فيها علومه، ومن يدري أن تكون فاس مجرّد غطاء عن نشاطٍ ما يقوم به في مكان آخر. لقد بدا لي مولاي عليّ شخصًا

Twitter: @ketab_n

ناضجًا، يعرف ما يريد، ووراء البراءة التي تظهر على ملاحه نَفْسٌ قاسية متمرّسة بالصعاب والمحن، لذا استغربت أن يكون ما يزال طالب علم في الجامع المشهور جامع القرويين، فلا أظنّ الأمر سوى نوع من التقية التي حدّثني عنها إبراهيم، وأخبرني أنّ الشيعة يلتجئون إليها حتى لا يكشفوا ما تضمره سرائرهم، خاصّة بعد ما لاقوه من معاناة على أيدي أهل السُّنَّة والجماعة.

يوم سفره كان يومًا مشهودًا.. الجميع في وداعه متأثّر بلحظة الفراق، لكنّ مولاي عليّ كان حازمًا وقويًّا، ولم يظهر تأثُّره لفراق للآخرين.. رافقه خادمه الذي لا يكاد يفارقه لحظة. تتبّعت بعينيَّ الحزينتين موكبه الصغير، وهو يتوغّل في البراري متّجهًا نحو المجهول، كان يزحف ببطء نحو وجهته، وقد أثقلت الحمير التي حملت بما لا أعلم سيره.. بعد احتجابه عن النظر، ظللت لمدّة طويلة أفكّر في مولاي عليّ، الذي أسر حضوره لبّي وذهني، فكّرت في حركاته وسكناته، واسترجعت بعض كلماته التي كانت واثقة من نفسها، تعبّر عن شخصيّة فذّة، لن تتراجع أبدًا عن تنفيذ ما ترغب فيه، مهما كانت الأهوال والصعوبات التي من الممكن أن تواجهها.

بعد لحظات حزينة، عدت لغنمي قانعًا بقسمتي، التي قسمها الله لي، فلقد آمنت دائمًا أنّ الأرزاق والأحوال قدر من العليّ القدير، وأنّه تعالى اختار الشريف لكي يكون شريفًا

Twitter: @ketab_n

والعامي والعبد ليكون عبدًا. لكن هذه النفس الأمّارة بالسوء لا تهدأ أبدًا ولا تستقرّ على حال، لقد حنّت ـ في تلك اللحظة بالذات ـ إلى آمالها وأحلامها القديمة، إذ سرعان ما طفقت تعاند قدرها وتهفو إلى العلا، حتى تنال قدرًا من التعظيم والتبجيل، كنت لا أراه مستحيل التحقّق إن قدّر الله تحقّقه. لا أدري ما الداعي إلى كلّ هذا، لكنّه يحدث في دواخلي ويناوش نفسي ويراودها عن نفسها فلا تمانع. «يا نفس اخجلي وعودي إلى طبيعتك».

في المرعى، حدّثني إبراهيم بكلام كثير لم أفهم منه شيئًا، وكأنّه كان يعدني لكلام لم يقله بعد، وتتحرّج نفسه من قوله. لم تحلّ عقدة لسانه إلّا ليلاً حين جمعنا الكوخ معًا، هناك حدّثني بكثير من اللطف ألقى بما يثقل على نفسه، فقال: «اسمع يا أبا يعزى. لقد سعدت بالأيّام والشهور التي قضيتها معك، لكنّ الله يريد ونحن نريد ولا يكون إلّا ما يريد، لقد كلّفتني الجماعة بمهمّة سرّيّة، سأسعى جاهدًا للقيام بها، إنّها على درجة قصوى من الخطورة، لكنّني لا أملك لنفسي أمرًا، فمنذ قرّرت الالتحاق بالجماعة أصبحت جنديًّا مطيعًا، أأتمر بأوامرها وأسعى إلى تحقيق أهدافها مهما كان الثمن الذي يتعيّن عليَّ أن أدفعه، لذا أستودعك الله وأوصيك بنفسك خيرًا، وبأن تتجنّب أمور السياسة قدر ما تستطيع، فلا يأتي من ورائها خير، فأنت تملك نفسًا طيّبة صافية ونقيّة، لا تقوى على مكر السياسة وأحابيلها. ابق بعيدًا عن قذارتها حتى لا تتلوّث، ولا

Twitter: @ketab_n

يغرّنك جميل القول ونبل الهدف، فالسياسة قاسية لا ترحم، تقتات على أعدائها، وحين تفنيهم تنتقل إلى أبنائها لتتغذّى عليهم، فهي لا تقنع أبدًا».

استغربت أن يحدّثني إبراهيم بمثل هذا الحديث، وهو المنغمس في هذا الأمر من أخمص قدميه حتى قنّة رأسه، لكنّني لم أعلّق بشيء، ظللت أحفظ له في نفسي تلك المكانة الجليلة، فلا أجادله في شيء، لكنّه فطن إلى ما يجول بخاطري، فأردف قائلاً: «أعرف ما تفكّر فيه، وقد يكون معك حقّ في ذلك، لكن ثق بي، فإنّ الإنسان غالبًا ما يجد نفسه منخرطًا في طريق لا ترتاح لها نفسه كلّ الارتياح، لكنّه يكون قد قطع شوطًا بعيدًا يستحيل معه الرجوع إلى نقطة البداية ليختار من جديد، لكنّه على الأقلّ ينبّه أحبّته من عاقبة سلك الطريق الخاطئ نفسه، فأنت سمعت بنفسك ما قاله مولاي عليّ عن الأمير يوسف بن تاشفين، فأنا لا أتّفق مع ذلك أبدًا ولم أنخرط في الجماعة، إلّا لأنّها كانت ضدّ التمييز بين الناس باللون أو النسب أو المكانة الاجتماعيّة أو المذهب، لكنّها مع تقدّمها خطوات نحو تحقيق هدفها، ها هي قد بدأت تتملّص من مبادئها تدريجيًّا، فأصبح رجالاتها يتحدّثون عن السادة والعبيد والشريف والعامي وغير ذلك ممّا يحزّ في النفس، لكن لا حيلة لي في التراجع. سأستمرّ في ما عاهدت نفسي والجماعة عليه، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً».

Twitter: @ketab_n

استغربت هذا الكلام والطريقة التي يلقيه بها صديقي إبراهيم، وكأنّه يرغب في التخلّص من حمل ثقيل، يتوخّى تخفيف نفسه منه، أو أنّه يكون بصدد تبرئة نفسه أمامي أنا صديقه الذي سمع ذلك الكلام من الشريف مولاي عليّ، الذي يحطّ من قدر كل من حمل جلده هذه البشرة السوداء ممّن هم أشباهي.. والله لا أدري كيف أفكّر ولا ما أفعل، فقط شعرت بعاطفة جارفة نحو إبراهيم. إنّه إنسان طيّب للغاية ورجل يعوَّل عليه، لكنّني اللحظة أوشك أن أفقده، وربّما لن تنعم عيناي برؤيته في قادم الأيّام..

قبل أن يندسّ كلٌّ منّا في فراشه، تابع إبراهيم كلامه قائلاً: «غدًا أو بعد غد سيأتي راع جديد ليعوّضني. أوصيك به خيرًا يا أبا يعزى، فقد يكون غريبًا أو يتيمًا أو ابن سبيل، فأحسن إليه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولن يضيّع الله أجرك أبدًا».. قال ذلك ثم امتدّت يده نحو جرابه، وأخرج نايه، ومدّه إليّ بكثير من الوقار، وهو يقول «أتمنّى أن تحتفظ به، فأنت أحقّ به من أيِّ شخص سواك، واعلم أنّني أبدًا لم أسلّمه لشخص في حياتي، وها أنذا أفعل ولا أدري لذلك سببًا».

ازداد تأثُّري بما يحدث ازديادًا ملحوظًا، فانسلّت من محجريَّ دموع، لم أفلح في إيقافها أو تجميدها داخل عينيَّ، كان جسدي يرتعش، فقمت من مكاني وعانقت إبراهيم، ثم

Twitter: @ketab_n

ارتميت على يده أقبّلها بكثير من الامتنان. حاول جاهدًا أن يسحب يده، لكنّني تمسّكت بها بكلّ ما أملك من قوّة، وقبّلتها بكثير من الشغف والصدق، حتى إنّني بلّلتها بماء عينيَّ.. هدّأ إبراهيم من روعي، ثم قادني نحو فرشتي فاندسست فيها، ثم ما لبث كلانا أن انقذف في النوم الرحيم.

حامت نفسي في دنيا الأحلام كالعادة، كنت مضطرب النفس حزينها، فانعكس ذلك على نومي، بتُّ أتنقّل من حلم إلى آخر دون أن أكمل حلمًا واحدًا إلى نهايته، رأيت أشياء كثيرة ومتداخلة يصعب تذكّرها، رأيت مولاي عليّ وصديقي إبراهيم والشريف الشرقاوي وأبي، رأيت أمّي وجدّتي وأخوتي.. أراهم جميعًا معًا ثم تتفرّق بهم السبل، لأرى كلّ واحد بمفرده في أوضاع غير مفهومة ولا تخطر على بال. رأيت نفسي أتزيّن بزينة النساء، وأستمتع بذلك أيّما استمتاع، ثم أرى نفسي فجأة في وضع مختلف، لديّ عروس نالت حظّها من الزينة، حتى كادت تنافس الجمال نفسه على مكانته، لم تكن العروس سوى لالة فاطمة الزهراء، التي لم يقع بصري عليها قطّ، لكنّها في الحلم كانت شبيهة جدًّا بأخيها مولاي عليّ، لها ملامحه المتناسقة الجميلة، غير أنّها بدت أكثر رقّة. لم يدم الوضع هكذا، إذ سرعان ما رأيت نفسي ألبس خِرقًا وأسعى في الطرقات كالمجنون، والأطفال يطاردونني في كلّ مكان، يرمونني بالحجارة، ويتنافسون في قذفي بأقذع السباب.. لكنّني لم أكن حزينًا أبدًا.. كان نوعٌ من الفرح

Twitter: @ketab_n

يسكن قلبي ولا يفارقه، فأشعر أنّ نذالة الأطفال وخبثهم يزيدني ابتهاجًا وفرحًا. استيقظت صباحًا على أصوات الدِيَكة، التي قيّدها الله للقيام بهذا الأمر، كما أخبرني إبراهيم، لتعلم الناس بحلول وقت صلاة الفجر. انتفضت واقفًا وكأنّني شعرت بأنّ شيئًا ما ليس على ما يرام. بعض الضوء تسلّل خجلاً نحو الغرفة وإن كان الظلام ما يزال به رمق من حياة، توجّهت طرًّا نحو فرشة إبراهيم، فلم أعثر له على أثر، مددت يدي أبحث عن الكتب، فوجدتها قد اختفت هي كذلك، حينذاك فطنت إلى أنّه قد غادر الكوخ ليلاً دون أن أشعر به، إنّه إنسان حاذق، حاول بتصرّفه هذا أن يجنّب كلينا وجع الفراق وقسوته. قرفصت داخل الكوخ وانخرطت في النشيج. بكيت بحرقة فراق صديقي إبراهيم. امتدّت يدي إلى قصبته أمسكتها بقبضتيّ، فتضاعف نشيجي وحرقتي.. كنت أبكي كطفل تركته أمّه خلفها دون أن يعرف لها وجهة، أحسست بثقل الوحدة وباليتم. تمنّيت فقط لو ألقيت عليه نظرة وداع قبل أن يختفي.. وأسأله على الأقلّ عن المكان الذي أجده فيه، إذا ما حنّت النفس إليه أو قادتني الأقدار في طريقه، والحقيقة أنّني أتوقّع أنّها ستفعل، أشعر في داخلي أنّ الطريق يناديني وسيحضن قدميَّ لزمن طويل، وجدت نفسي حينذاك أردّد بشكل لاإرادي «اللّهم لا نسألك ردّ القدر، وإنّما نسألك اللطف فيه».

لملمت شتات نفسي المضطربة، ثم غادرت الكوخ وتوجّهت رأسًا نحو الحظيرة لأخرج الأغنام كي أتوجّه بها نحو

Twitter: @ketab_n

المرعى، لكنّني ما إن خطوت بعض الخطوات خارجه، حتى لمحت الشريف الشرقاوي يتقدّم نحوي بثباث وحزم. حين لم يبق بيني وبينه غير خطوات، ارتميت على يده أقبّلها. لم يسحبها كما فعل مولاي عليّ، لكنّه ربت على رأسي قائلاً: «الله يرضى عنك». تطامنت أمامه في خضوع وتذلّل، حتى لا يستفزّه طول قامتي فأبدو قليل الأدب، فتابع كلامه قائلاً: «من اليوم فصاعدًا سترعى الأبقار والخيل، وقد يأتي اليوم أو غدًا من يهتمّ بالأغنام، لكن قبل أن تخرج البهائم إلى المرعى.. ضع للأغنام ما تلتهي به من عشب لهذا اليوم». أجبته بالإيجاب ثم هممت بالانصراف.. قبل أن أغادر، خاطبني قائلاً «اسمع يا بنيّ، فأنا أعوّل عليك في الاهتمام بالماشية، سأسافر اليوم لأنّ مولاتك لالة فاطمة الزهراء مريضة منذ شهر، ولم نفلح في علاجها وسآخذها إلى فقيه بمراكش ليعالجها. إن جاء راعي الغنم اليوم أو غدًا استقبله وساعده على القيام بعمله».

أصابني الدوار من كلامه. ماذا أصابها! لالة فاطمة الزهراء؟ ماذا يريد منها المرض التافه؟ كيف استطاع أن يتجرّأ عليها؟.. قاومت انفعالي حتى لا تظهر على وجهي أيّ علامة توحي بما يضطّرب في داخلي، لكنّ الشريف لاحظ ذلك، فقال لي مواسيًا:

«أعرف أنّك تحسّ بألم الفراق، فإبراهيم رُجل جيّد،

Twitter: @ketab_n

ولولا إلحاح سيّدك مولاي عليّ بشكل لا أفهمه، لما تركته يرحل، لكن لا بأس من ذلك، غدًا تجد الرفقة الطيّبة في الراعي الذي قد يحلّ بيننا في أيّ وقت».

تعثّرت في خطواتي نحو الحظيرة. فتحت بابها وتطلّعت إلى البهائم الضخمة، لقد بدا لي الفرق بينها وبين شويهاتي هائلاً، كيف أنتقل هكذا من همّ صغير إلى همّ كبير لا قبل لي بتحمّله؟ هل في ذلك إشارة ما؟ حدّثني إبراهيم سابقًا بأنّ رجال الصوفيّة، الذين منهم الرجل غازل الصوف الذي حكى لي عن معاناته ومأساته، بأنّهم يؤمنون بأنّ كلّ ما يحدث في حياتنا مجرّد رموز، لو أحسنّا تفسيرها لفهمنا العالم بشكل أفضل، ولتوقّعنا ما سيحدث في حيواتنا، فالله يمنحنا إشارات لما خطّه في الكتاب المسطور، منها ما يظهر في الأحلام ويستغلق فهمه على الناس العاديين، ومنها ما يحدث جهارًا نهارًا في حياتنا اليوميّة، لتنبّه كلّ ذي عقل لبيب، لذا وجدت في نفسي هوى أن أفسّر هذا الانتقال المفاجئ لحياتي من رعي الأغنام ضئيلة الحجم إلى الأبقار والخيل ذات الأحجام الكبيرة، بكونه رسالة ما بعثها الله إليّ لأفهم المصير، الذي أُقاد إليه بالرّغم عنّي، ثم هذا الخبر الصاعقة، الذي رماني به بكلّ عفويّة وحسن نيّة عن مرض فاطمة الزهراء، ورؤيتي لها في الحلم بكلّ ذلك الوضوح، أليس كلّ هذا تعبيرًا عن أشياء تنتظم في الخفاء لترمي بي في ما بعد في مهاوي المجهول؟

Twitter: @ketab_n

كان عليّ أن أبذل مجهودًا للتكيُّف مع وضعي الجديد. التعامل مع البهائم الضخمة مختلف، يستوجب الكثير من الحرص، لكنّني قبل أن أُخرجها من الحظيرة، تذكّرت أنّه يتوجّب عليّ الاهتمام بداية بالأغنام، فأوفّر لها قوت يومها. قصدت البيدر، هناك حملت حُزَمًا من القشّ ونقلتها تباعًا نحو حظيرة الأغنام، ثم عمدت إلى الساقية ونقلت منها بعض المياه لتجد الأغنام ما ترتوي به.. حين انتهيت من ذلك، توجّهت نحو حظيرة الأبقار، فأخرجتها بكثير من الحرص والانتباه، ثم توجّهت نحو الخيل ففككت أسرها.. متتالية خرجت نحو الفضاء الواسع.. تقدّمت الخيل نحو الخارج بكثير من الخيلاء، كانت أنيقة في سيرها، تفرج من حين إلى آخر على صهيل ينحفر في أعماق الذات وينقل إليها نوعًا من العنفوان، الذي تتميّز به هاته الأحصنة والأفراس. مضيت في طريقي نحو المرعى أقود البهائم بكلّ ما أملك من انتباه، أريد أن يكون يومي الأوّل في رعي هاته البهائم بدون أخطاء حتى أظفر بثقة الشريف الشرقاوي.. رافقتني الكلاب كالعادة.. ليس كلابي فقط بل كلاب إبراهيم كذلك. لكنْ، كلٌّ منها حافظت على مسافة فيما بينها، وكأنّها اتّفقت مسبقًا على ذلك. تحيّرني كلاب الرعي هاته بهذه المقدرة على القيام بأمور يعجز العاقل عن فهم كيفيّة تدبيرها لها.. حاولت كسب ثقة كلاب إبراهيم كذلك، فكنت أرمي لها كسرًا من الخبز في كلّ وقت وآن، حتى أجهزت على رغيفي، فعوّلت على أن أقضيَ يومي طاوي

Twitter: @ketab_n

البطن، خاصّة وأنّني لا أشعر بأيّ رغبة في الطعام، فما حدث في هذا اليوم المشؤوم سدّ نفسي عن أيّ شهوة كانت. أفليس غريبًا أن يكون اليوم الذي أفارق فيه صديقي إبراهيم هو اليوم نفسه الذي يبلغني فيه مرض حبيبة القلب، وهو اليوم نفسه الذي أبتلي فيه بمرافقة هذه البهائم الضخمة التي تبدو معتزّة بنفسها، حتى إنّها لن تقبل أيّ تعامل لا يتّفق مع نخوتها، والقصد هنا الخيل، التي شعرتُ بكثير من الرهبة تجاهها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بعد يومين اثنين، حلّ بالبيت الكبير رجل كهل يضلع في مشيته. كان به عرج ظاهر، يتّكئ على رجله اليمنى ليدعمها خلال المشي، دون أن يعتمد على عصا تسنده، كان يرتدي ملابس ذات رقع متعدّدة الأشكال والألوان. ما إن وقع عليه بصري، حتى عرفت مدى ما ينتظرني من عَنَت في التعامل معه، لكنّني لم أغضب ولم يصب نفسي أيّ نفور منه. لقد اعتبرت الرجل مناسبة لي لمجاهدة النفس، وترويضها على الصبر والجلد، وعاهدت نفسي على أن أتكفّل به وأقدّم له يد العون حتى يتغلّب على كلّ الصعاب، التي يمكن أن تواجهه في ما يتوجّب عليه القيام به. استقبلت الرجل في الكوخ، وقدّمت له بعض الماء كي يروي عطشه، ثم عمدت إلى أحد الجلاليب، التي غنمتها من إبراهيم وقدّمتها له باحتفاء. أخذها

Twitter: @ketab_n

الرجل وكأنّها غنيمة حرب، فلم يكلّف نفسه حتى تقديم الشكر لي، لكنّني لم أهتمّ بذلك، بل طفقت أرحّب به وأقدّم له بعض المعلومات، التي قدّرت أنّها ستفيده في عمله، بيد أنّ الرجل لم يكن يحفل بذلك مطلقًا، لقد بدأ الحديث في أمور غريبة، لا يمكن توقّعها من شخص حطّ الرحال قبل لحظات في هذا المكان.. لم يعجبني ذلك، وتأكّدت أنّ معاناتي ستكون أكثر ممّا تصوّرت. كان الرجل يرغي بشكل غريب، يتحدّث في كلّ شيء، وكأن لا شيء في هذه الدنيا يغيب عن فكره. استغربت في نفسي سلوكه، لكنّني سرعان ما تجاوزت الأمر معلّلاً النفس بأنّه قد يتخلّى عن عادته السيّئة هاته مع توالي الأيّام.. أخذنا الماشية نحو المرعى. ساعدته في التحكّم في الغنم وقيادتها نحو مرعاها، لكنّه ما لبث أن تركها بدون إحساس بأيّ مسؤوليّة، ودبّ نحوي قاصدًا المكان الذي استقرّ فيه، فعل ذلك حتى قبل أن يتعرّف على المكان بشكل جيّد ويطمئنَّ على غنمه. استقبلته باحتفاء مصطنع، جلس بجانبي، وبدأ يتحدّث في جميع المواضيع دفعة واحدة، يتنقّل من موضوع إلى آخر بشكل أصابني بالدوار، ثم ما لبث أن تكوّر على نفسه وراح في نوم عميق. قلت في نفسي: ربّما هو التعب، قد نال منه. من يدري؟ قد يكون الرجل قد أتى من مكان بعيد، إذ لم تتح لي الفرصة لسؤاله، حتى لا يشعر بأنّني أتدخّل في أمور لا تعنيني.. قمت من مكاني، وأخذت أراقب الماشية جميعها، ضئيلها وضخمها، ولم ألمس في نفسي أيّ

Twitter: @ketab_n

ضيق من ذلك، بل قمت به برحابة صدر ونفس راضية مرضيّة..

قضينا يومنا في المرعى، نرعى الماشية ونرعى معها النهار، نراقبه وهو يشبّ عن الطوق وهو ينضج ويكتهل، ثم وهو شيخ، سرعان ما يكتسحه الوهن ويندثر باختفاء الشمس.. حينذاك أعددنا العدّة للعودة إلى البيت الكبير. كان الرجل مغلوبًا على أمره، ويبدو أنّه أخطأ الوجهة، فالرعي لا يلائمه أبدًا، بدا أنّه لا يحسن التعامل مع البهائم، ولا يرغب في تعلّم ذلك. حاولت توجيهه قدر المستطاع، حتى أوصلنا الماشية إلى مستقرّها في الحظائر، وبعد أن أعددت لها غذاء الليل وشرابه، توجّهنا نحو الكوخ، كي ننال نصيبنا من الراحة.. بعد فترة من حلولنا به، سمعنا طرقات على الباب، أراد الكهل، الذي عرفت بأنّ اسمه المعطي أن يقوم لفتحه، فطلبت منه عدم التسرّع في ذلك، ثم شرحت له مجريات الأمور هنا، لكنّه غضب ولم يتفهّم الأمر، ظانًّا أنّني أفرض وصايتي عليه رغم صغر سنّي مقارنة به.. لم أعلّق بشيء، تصرّفت وكأنّه لم يقل أيّ كلمة..

بعد أن تناولنا طعام العشاء، استلقى كلٌّ منّا في فرشته، وطفقنا نتحدّث في أمور شتّى. الحقيقة أنّه هو من كان يتحدّث وأنا كنت فقط أصغي إليه.. كان كلامه يتنقّل من حدث إلى حدث، دون أن يركز على حدث بعينه، لم أستطع متابعته في

Twitter: @ketab_n

ذلك، فالتجأت إلى النوم لعلّه يحمي أذنيَّ من سماع ما لا ترغب النفس في سماعه. وجدت نفسي بالرّغم عنّي أقارن بين المعطي وإبراهيم، فلمست الفرق الشاسع بينهما، فأفرجت عن زفرة، نفّثت عبرها بعض حزني على فراق إبراهيم.

صباحًا، عانيت الأمرّين من أجل إيقاظ المعطي، إنّه رجل خمول، يعشق النوم بشكل غريب، حتى إنّ غطيطه لم ينقطع الليل كلّه، حين تحقّق لي إيقاظه، حرّضته على ضرورة الإسراع بإخراج القطيع، والتوجُّه به نحو المرعى قبل أن تفاجئنا الشمس بطلوعها. غادرنا الكوخ، فإذا بنا نجد الشريف الشرقاوي أمامنا، ينتظرنا قرب الحظائر. ارتميت على يده أقبّلها، ومثل صنيعي فعل المعطي. تمتم الشريف ببعض الأدعية التي اعتاد أن يمطرني بها كلّما قبّلت يده، ثم ناولني صرّة ممتلئة بأشياء لا علم لي بها، وقال محتفيًا: «هذه بعض الهدايا من مراكش». تناولتها بحرج، ثم تملّكتني الجرأة للسؤال عن ابنته المريضة، فقلت سائلاً وعيناي إلى الأرض:

«ما أخبار مولاتي لالة فاطمة الزهراء».

متحسّرًا ردّ الشريف: «للأسف حالتها لا تتحسّن رغم وعود الفقيه وتمائمه».

اقتحمتني شجاعة أكثر، فأردفت سائلاً: «هل من الممكن أن تصف لي مرضها.. لديّ جدّة تداوي الأمراض بالأعشاب».

Twitter: @ketab_n

نظر إليّ نظرة المتشكّك، لكنّها نظرة يائس كذلك، تتعلّق بأيّ قشّة ترى فيها إمكانيّة النجاة، وكأنّه يقول في نفسه «لِمَ لا نجرِّب؟»، فقال شارحًا حالتها:

ـ ينتابها سعال غريب ليلاً، يلازمها حتى تتقيّأ وتفرغ بطنها من الطعام، فاكتسحها نتيجة ذلك اصفرار مخيف.

قال ذلك، ثم لزم الصمت، وكأنّه فطن أخيرًا إلى أنّه تحدّث مع خادم أكثر من اللازم، إذ سرعان ما تدارك الموقف قائلاً:

ـ البهائم تنتظر، هيّا أخرجاها، واهتمّ بهذا الأعرج الذي رمته بنا الأقدار.

خجلت من نعته للمعطي بالأعرج، لكنّني حين استرقت نظرة إلى هذا الأخير، لم أر عليه أيّ نوع من التضايق أو الغضب، وكأنّه اعتاد هذا اللقب، وربّما ينعته به الجميع في المكان الذي قدم منه.

أخرجنا الماشية وتوجّهنا بها نحو المرعى.. شغلني حال مولاتي فاطمة الزهراء، التي ما إن يأتي ذكرها، حتى يخفق قلبي بشدّة، وتعتصرني حسرة لا أملك منها فكاكًا.. أنا أعرف وظيفة الأعشاب وما وصفه الشريف الشرقاوي من أعراض المرض لديها، يبدو مألوفًا، وليس غريبًا ولا مستعصيًا، فلو أنّها تناولت المناسب من الأعشاب لتخلّصت من كلّ ذلك، ولعادت إليها عافيتها بكثير من العنفوان.. تدبّرت في الأمر

Twitter: @ketab_n

بهدوء، كان عليّ أن لا أخطئ بأيّ مقدار، ستكون أوّل وصفة أعدّها وربّما تكون الأخيرة، وعليها يتوقّف كثير من الأمور، وخاصّة مستقبلي، فإن أصاب الزهراء مكروهًا بسبب الوصفة، فستكون حتمًا نهايتي، سيقتلونني هنا ويرمون بجثّتي للكلاب، أمّا إن نجحت الوصفة وتخلّصت الزهراء من مرضها، فهذا معناه أنّني أفدتها بشيء كبير، وأنّها ربّما تعرف أنّني صاحب الوصفة ويكون لي ذكر لديها، وهذا يكفيني بل يزيد عن حاجتي.. لم يتوقّف المعطي لحظة عن الحديث، كان يخبرني عن مراكش وكأنّه عاد منها للتوّ، محفّزًا بهديّة الشريف، التي كان يستعجل الاطّلاع عليها، تلك التي ناولني إيّاها صباحًا وأخبرني بأنّها هديّة من زيارته لمراكش. استغربت سلوكه، فلقد اعتبر نفسه مشاركًا في هاته الهديّة، وأنّ له حقًّا فيها.. استبطأته قليلاً، حتى تستقرّ الماشية في المرعى ويأخذ كلٌّ منها مكانه المناسب، لكنّني أمام إصراره ولغطه، اضطررت لفتح الصرّة، فإذا بها تحتوي على فواكه يابسة: تمرًا ولوزًا وتينًا جافًّا وحمّصًا وبعض الحلويات، سعد المعطي بهذه الهديّة كطفل صغير، بدت الفرحة على ملامحه بشكل لم أصدّقه، فمدّ يده نحو الصرّة ليأخذ منها نصيبًا له. أمام استغرابه، مددت له الصرّة وأنا أقول له:

ـ «هي لك كلُّها. تفضّل».

ارتمت يداه عليها بكثير من اللهفة، وكأنّهُ يخشى أن

Twitter: @ketab_n

أتراجع عمّا تفوّهت به.. أمسكها وقام من مكانه، وتوجّه نحو مكان بعيد عنّي. تتبّعته وهو يمضي في طريقه بمشيته المعقَّدة، التي يتداخل فيها جسمه بشكل غريب. علت الابتسامة شفتيَّ، ثم سرعان ما اختفت، لأجد نفسي منشغلاً بوضع الزهراء، أفكّر في العلاج المناسب لها. استرجعت في تلك اللحظة كلّ المعارف التي اكتسبتها من جدّتي، بيني وبين نفسي ردّدت أسماء الأعشاب وفوائدها، من دون أن يغيب عن الذهن أنّ فوائد هذه الأعشاب ستكون قويّة وفعّالة إذا أضيف لها العسل، الذي حدّثتني جدّتي عنه كثيرًا، رغم أنّنا أبدًا لم نظفر به في بيتنا، لكن هنا في البيت الكبير لا بدّ أن يكون متوافرًا بالكمِّيّة التي تزيد عن الحاجة! فكّرت أن أمزج في وصفتي ثلاث أو أربع أعشاب حتى يكون تأثيرها أكبر، عمدت إلى جرابي وشرعت أستعرض الأعشاب، التي كنت دومًا أحتفظ بها، لقد أصبح هذا الجراب مخزن أعشاب متحرّك.. فكّرت في الحبّة السوداء التي يسمّيها أهلنا «السانوج»، وفي نبتة تشبه برائحتها الزعتر لكنّها مختلفة عنه، نسمّيها بالتصغير، فلقد علّمتني جدّتي أنّ اسمها «الزعيترة»، قلت في نفسي إنّ خلط هاتين الاثنتين وإضافة العسل إليهما، فمن المؤكّد أن تكون النتائج مبهرة، خاصّة إذا ما ساندهما توفيق من الله تعالى، فلا شفاء إلّا من عنده، وهو الذي خلق الداء والدواء. عكفت على العشبتين المطلوبتين أسحقهما بحجر أملس، بعد أن وضعتهما داخل قطعة من الكتّان، هي نفسها التي تلقّيت فيها هديّة مولاي

Twitter: @ketab_n

الشريف الشرقاوي، بعد أن أفرغتها ممّا كانت تتضمّنه، ومحضت به المعطي.. تدريجيًّا، فاحت رائحة العشبتين، بعد أن امتزجتا بشكل مثير، لقد كانت الرائحة نفّاذة وقويّة، وتَعِد بالكثير. حين اطمأنّيت إلى النتيجة التي بلغتها، صررت المسحوق في قطعة القماش، ودسستها في جرابي، ثم عدت إلى بهائمي أرعاها، وبين الفينة والأخرى تبحث عيناي عن المعطي الذي يبدو أنّه افتُتن بالهديّة، فاختفى عن الأنظار..

مساء، عدت إلى الكوخ رفقة زميلي الجديد المعطي. قمت بعملي المعتاد قبل الخلود إلى الراحة، وخاصّة تزويد الماشية بالتبن، تمدّدت في فرشتي، ثم ما لبثت أن انشغلت من جديد بوضع الزهراء الصحّي، وبالدواء الذي أعددته من أجلها، لكنّني لا استطيع أن أغامر بتقديمه إليها، كنت خائفًا أن أتسبّب في كارثة ما، لكنّ الله إذا قدّر شيئًا فإنّه يخلق له أسباب وقوعه.. هكذا، على حين غرّة، وصلني وأنا في حضن الكوخ صوت الشريف الشرقاوي وهو يناديني باسمي. انتفضت من فرشتي وهرولت نحو الخارج، رأيت الرجل واقفًا وهو يحمل إلينا بنفسه طعام العشاء. استغربت ذلك بداية، لكنّ هذا الاستغراب سرعان ما توارى إلى الخلف، حينما خاطبني قائلاً:

ـ لقد حدّثتني عن جدّتك التي تعالج بالأعشاب. هل لها مكان محدّد يمكن اللجوء إليها؟ حال مولاتك لَالة فاطمة

Twitter: @ketab_n

الزهراء لا تتحسّن.

تلعثمت في الحديث، ثم تمالكت نفسي وأخبرته قائلاً:

ـ لا.. أبدًا ليس لها أيّ مكان معروف، هي تقيم معنا في البيت.

بدا نوع من الإحباط على وجهه، لكنّني استغللت الفرصة وقلت له مخاطبًا:

ـ لديّ شيء لمولاتي فاطمة الزهراء يا سيّدي، وأتمنّى أن تقبله.

مستغربًا ردّ عليّ:

ـ كيف ذلك؟

مرتبكًا رددت عليه:

ـ اخلط هذا المسحوق بالعسل، واعطها منه كلّ ليلة قبل النوم، ولتتغطّى جيّدًا حتى يتعرّق جسدها، ولا تشرب ماء أو تغادر فراشها حتى الصباح.

نظر الشريف الشرقاوي إليّ نظرة اندهاش واستغراب، ثم مدّ يده نحوي، وهو يقول:

ـ يجعل الله سرّه في أضعف خلقه، لِمَ لا نجرّب ذلك؟

عدت إلى الكوخ حاملاً صحن الكسكس وبعض اللبن، استقبلني المعطي بكثير من الحبور، ثم ما لبث أن انهمك في

Twitter: @ketab_n

ابتلاع الطعام بشهيّة مفتوحة، وبعد أن أجهز على نصفه أو أكثر، التفت إليّ قائلاً:

ـ كُلْ.

رددت عليه قائلاً:

ـ صحّة وعافية، لا رغبة لي في ذلك.

تمدّدت في فرشتي، وأنا أفكّر في كلّ ما يحدث لي، هل سأكون حقًّا سببًا في علاج مولاتي فاطمة الزهراء، وهل أخيرًا ستعرف بشخص اسمه أبو يعزى، يهتمّ بحالها ويتمنّى لو يقدّم حياته فداء لها كي تتعافى، وتعيش سعيدة بعيدة عن كلّ ما ينغّص حياتها؟! تخيّلتها وقد عادت دماء الحياة والحيويّة إلى جسدها الذي أنهكه المرض، بدت لي أميرة يجلّلها البياض، تركب فرسًا مزركشة بأزهى زينة، تحملها على ظهرها وتمضي بها ببطء وأناة نحو عريسها، الذي لا زلت لست قادرًا على أن أتخيّله كما تشتهي نفسي، أي أن أكون أنا نفسي.. لا قدرة لي على ذلك، أعرف أنّ أقصى ما أطمح إليه أن أكون عبدًا خادمًا في قصرها، وهذا بحقّ يكفيني ويزيد عن حاجتي.. جدّتي كانت دومًا تردّد كلامها المأثور «لا ترتفع العين عن الحاجب». وفي حالتي هاته يصدق عليّ هذا الكلام بكثير من الصدق.. حننت لحظتئذ إلى وجود صديقي إبراهيم بجانبي، لقد كان من الممكن أن أحدّثه دون خوف أو تردّدٍ عمّا أشعر به نحو سيّدتي ومولاتي وملكة قلبي، شعرت بدمعة تترقرق في

Twitter: @ketab_n

أعماق عيني.. قاومتها بكثير من البأس، حتى لا تنحدر على خدّي وتفضح ما يعتمل في دواخلي. التفتُّ نحو المعطي، فرأيته لا يزال منشغلاً بالكسكس واللبن، فسمحت لدمعتي أن تنطلق حرّة، لا حاجز يقف أمامها أو يمنعها من التعبير عن مدى الشوق، الذي أشعر به نحو تلك الفتاة التي مَلَكت قلبي، حتى دون أن يقع عليها بصري. ياه.. كم هو غريب هذا الأمر الذي يحدث لي! أمن الممكن أن يحدث ذلك؟ ولِمَ لا يحدث؟ الرؤية العاديّة ليست شرطًا للولَه والعشق والذوبان في المحبوب! لا أدري كيف تداعى في ذهني في تلك اللحظة الرجل صاحب الصوف الذي يدعى الحلّاج، الذي أحبّ الله حتى فاض به الحبّ، اندمج في محبوبه دون أن يقع بصره عليه، أم ترى يكون قد رآه دون أن يعلم بذلك أحد؟ فالرؤية لا تكون فقط بالعين، هناك في الأعماق تستقرّ عين القلب، التي يمكن للمرء أن يرى بها ما يعجز البصر المحدود عن رؤيته.. أأكون دون أن أدري أنتمي إلى أولئك البشر الذين يمتلكون القدرة على الرؤية من وراء حجاب؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

منذ أن سلّمت مسحوق الأعشاب إلى مولاي الشريف الشرقاوي وأنا أعيش على أعصابي، أنتظر في كلّ وقت وآن أن أتلقّى خبرًا، يطمئنني على الزهراء وعلى الوصفة التي اقترحتها على أبيها.. مرّت أيّام دون أن أظفر بذلك، فانهمكت في صغائر حياتي الخاصّة رفقة بهائمي وصحبة المعطي، الذي لم تزده الأيّام سوى ثرثرة، لقد أضحت له مواضيع جديدة يتحدّث فيها بإسهاب، حتى إنّه لم يعد قادرًا على الصمت. لم ينجُ أحد من لسانه. تناول في حديثه أفراد عائلة الشريف الشرقاوي فردًا فردًا، وكأنّه يعرفهم حقّ المعرفة، بل وكأنّه تناول العشاء معهم ليلة أمس.. يحكي عن تفاصيل حياتهم بنوع من الثقة واليقين، تجعل مستمعه يصدّق أنّ الرجل لا ينفصل عنهم أبدًا، ولولا أنّني أعرف عنه كلّ شيء تقريبًا،

Twitter: @ketab_n

لاعتقدت أنا الآخر أنّ كلّ ما يحكيه صحيح ولا يتسرّب الشكّ إليه. إنّه يمتلك قدرة لافتة على الحكي والاختلاق، وكأنّ مكانه الحقيقي في إحدى حلقات الرواة، التي تمتلئ بها الساحات في المدن، أولئك الحكواتيُّون الذين يحكون قصص الملك الهمّام سيف بن ذي يزن، وحكاية أبي زيد الهلالي، وحكاية عنترة بن شدّاد الفارس الذي قهر الشجعان وسارت بذكره الركبان.. استمرّيت وإيّاه في حياتنا على الوتيرة نفسها، ننقل الماشية إلى المراعي نهارًا ونقضي سحابة يومنا برفقتها، وفي المساء نزحف بها نحو الحظائر، ثم نرتكن داخل الكوخ الذي يحنّ إلينا ونحنُّ إلى دفئه كلّ مساء، حتى جاء ذلك اليوم الذي سيكون مختلفًا عمّا سواه. ففي إحدى الصباحات، بينما نحن نستعدّ لإخراج الماشية، إذ لاحظنا ضجّة تحيط بالبيت الكبير من كلّ جانب، وإذا بفرسان يلتحقون بالبيت من كلّ الأطراف، انبهرت بوجودهم القويّ المربك، وكذلك الشأن بالنسبة للمعطي الذي لم يعد يعرف ما يقدّم ولا ما يؤخّر، لقد أُخذ مثلي على حين غرّة بهذا التواجد الكثيف للفرسان، حملقت فيهم بعيون منذهلة، دون أن أعرف منهم شخصًا، لقد كانوا ملثّمي الوجوه، وإذا ببعضهم يترجّل من على صهوات الخيول، ويكشفون عن وجوههم، فيظهر لي وجه الشريف مولاي عليّ ضمنهم. حينذاك، داخلني بعض الاطمئنان، لكن نوعًا من الانشغال ظلّ يتردّد في دواخلي، فلأوّل مرّة يلتحق بالبيت الكبير هذا العدد من الفرسان، وكأنّهم على أهبّة

Twitter: @ketab_n

الاستعداد للغزو أو محاربة عدوّ ما. ارتميت على يد الشريف كي أقبّلها، غير أنّه سحب يده كالعادة، وحيّاني بما يليق بصديق لإبراهيم وخليله، ثم ما لبث أن حدّثني قائلاً:

ـ عزاؤك وعزاؤنا واحد.

لم أفهم ما يقصد من كلامه هذا، فقط أعرف أنّ العبارة تعني الموت، أي أنّ عزيزًا اختطفه الموت، فسألته قائلاً:

ـ من الذي مات يا سيّدي؟

للحظة فكّرت في أبي أو جدّتي، لكنَّ كلامه نزل عليّ كالصاعقة:

ـ لقد استشهد إبراهيم وهو يؤدّي الأمانة التي اؤتمن عليها.

منذهلاً، قلت مستوضحًا:

ـ هل مات إبراهيم؟

غاضبًا ردّ عليّ:

ـ لم يمت وإنّما هو حيّ يرزق، وردّد آية من القرآن الكريم ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا، بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾.

دارت بي الأرض ومادت وارتجّت من تحتي، حتى فقدت توازني، وارتميت.على الأرض لا أدري شيئًا ممّا يحدث من حولي.

Twitter: @ketab_n

بعد مدّة لا يعلمها إلّا الله، فتحت عينيَّ لأجد نفسي ممدّدًا على فرشتي داخل الكوخ، استرجعت بصعوبة ما تفوّه به الشريف، فرفضت تصديقه، أفرجت عن تأوّهات حارقة، كادت تتفتّت لها كبِدي، بكيت بحرقة لا عهد لي بها، حاولت أن أنهض من مكاني، فلم أجد لديّ القوّة اللازمة لفعل ذلك، رأيت المعطي بجانبي، ينظر إليّ ببلاهة، ثم قال متسائلاً:

ـ ماذا كان يقرب إليك الميت؟

لم أستطع أن أردّ عليه بشيء. أنا على يقين أنّه لن يفهم الأمر أبدًا، فهو لا يتصوّر أبدًا أنّ روابط أخرى غير رابطة الدم يمكنها أن تكون أشدّ قوّة ومتانة من غيرها من الروابط، فحين يقع امرؤ في نفسك موقعًا حسنًا، لا تدري كيف تتسلّل خيوط المحبّة من قلبك إلى قلبه، ومع مرور الزمان تتشابك هذه الخيوط وتتقوّى حتى يصبح من المستحيل الافتكاك منها، لا تربطني بإبراهيم أيّ علاقة دمويّة، ولم أره قبل حلولي بالبيت الكبير أبدًا، وأنا وإيّاه نختلف في كثير من الأمور، نختلف في اللون والعرق والمكانة الاجتماعيّة وفي المعرفة كذلك، لكن هذا لم يمنع أن تنتسج بين قلبينا وشائج محبّة تفوق قوّة باقي الوشائج.

تدريجيًّا، استرجعت بعض قوّتي، لكن بعض التعب لازمني، فأخذت عصا وتوكّأت عليها كي تسندني في سيري. غادرت الكوخ، وذهبت حيث نصب فرسان من جماعة مولاي

Twitter: @ketab_n

عليّ خيمة كبيرة، بنوها خصّيصًا لتقبّل العزاء في الفقيد الشهيد، داخل الخيمة، اخترت مكانًا وجلست، وقد توافد عليّ الفرسان بتحريض من الشريف ليقدّموا لي العزاء في إبراهيم، لقد كان لا يكفّ عن إخبارهم عن المكانة التي كنت أحتلّها في قلبه، وأنّه ظلّ يوصي بي خيرًا حتى لحظاته الأخيرة، كما وصله من الأعضاء الذين نجوا من الاغتيال.. لم أهتمّ بكلّ ذلك، وإنّما ظللت أجترّ المرارة التي تعتصر قلبي وتسمّم بدني، حتى إنّني تعجّبت من نفسي أنّني لا أزال أتنفّس الهواء، فحريٌّ بمن في مثل حالي أن تفارق روحه الحياة، وتهمل جثّته في مكان ما لتقتات منها الديدان، شرّ الديدان وأكثرها شراهة ولهفة للاقتيات من لحوم البشر، بعد أن تداهمها التتانة.

بعد صلاة الظهر، أقمنا صلاة الغائب على الشهيد، وترحّمنا عليه، وأقمنا له قبرًا رمزيًّا في انتظار أن نحصل على جثمانه الطاهر، كما وعد أفراد الجماعة بذلك، بعد أن تصبح سلطة الزمان بأيديهم.

بعد ذلك، تناول الشريف مولاي عليّ عصا واتّكأ عليها، فاتّخذ بسبب ذلك هيأة الخطيب، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وخصّ النبيّ الكريم جدّه المصطفى خير الخلق أجمعين، بالصلاة والسلام، طفق يقول: «لقد تبيّن الحقّ من الباطل، وها هم عِثْرة الكفر والطغيان، تكشف عن وجهها السمج القبيح بقتل أهل الدعوة والجماعة، فلم يحمل إبراهيم سلاحًا

Twitter: @ketab_n

لمقاتلتهم، وإنّما حمل كلمته الصادقة في قلبه وعقله ولسانه، وجعل منها سراجًا يضيء به طريق التائهين المتردّدين، وقد بلغنا أنّ الكثير من الخلق اقتنعوا بحجّته، ونصروا دعوته، فعرف أهل الكفر والطغيان أنّ ساعتهم قد أزفّت، فامتدّت يدهم الغادرة إلى الروح النقيّة والجسد الطاهر، يودّون أن يطفئوا نور الله بأيدهم، هيهات، فللّه رجال صدّقوا الله ما عاهدوه عليه، ولن تنال من عزائمهم صغريات الأمور، فالنصر النصر أو الشهادة».

ردّد الرجال بعده عبارة «الله أكبر» بأصواتهم القويّة الجهيرة المزلزلة، ثم رفعوا أكفّهم بالدعاء لإبراهيم بأن يسكنه الله فسيح جنّاته، وأن يحشره مع الأنبياء والصدِّيقين، وأن يلحقهم به مؤمنين صادقين متمسّكين بالعهد مؤدّين للأمانة التي أؤتمنوا عليها، ولم يفتهم التعهّد بالانتقام للشهيد أشدّ الانتقام، بما يليق بمكانته في الجماعة وفي قلوب الناس الذين اتّبعوا دعوته وآمنوا بصدق كلمته.

في تلك اللحظات، تحرّكت أنفاس الريح الباردة، وجادت السماء بأمطار خفيفة استبشر الجميع بها خيرًا، واعتبروها فألاً حسنًا وشآبيب رحمة خصّ بها الله الفقيد. ظللت أحمل أوجاعي وأنا أتأمّل هذا المشهد الغريب عنّي، تألّمت لهذا القدر من الكراهية في القلوب والتوق إلى الانتقام، تذكّرت كلمات إبراهيم عن السياسة وأحابيلها وحبالها المتينة، التي ما

Twitter: @ketab_n

إن تحكم قبضتها على أحد، حتى يصبح أسيرها الأبدي، يدين بدينها ويمنح نفسه قربانًا متجدّدًا لها، تأمّلت هذه الأمطار التي تهاطلت دون سابق إنذار، وتمنّيت من أعماق قلبي أن تجرف الحقد من القلوب وتطهّرها من أمراضها المستوطنة، فالله لا يجود بنعمه علينا إلّا من أجل الحياة، وليس رغبة في إفناء بعضنا بعضًا. شعرت وسط كلّ هؤلاء الناس بغربة مستوطنة، كانت نفسي حينئذ تكبر بسرعة، فتجاوزت عمري الحقيقي بسنين، كانت تهرم أمام عينيَّ دون أن أملك لها حولاً ولا قوّة.

بعد تقديم العزاء وإلقاء الكلمات، وترتيل آيات من الذكر الحكيم، قدّم الطعام للفرسان، فانهمكوا في التهامه بشهيّة مفتوحة، كانوا يتنافسون في ذلك بدون اتّفاق مسبق، وكانت تعاليقهم قد ابتعدت تدريجيًّا عن الشهيد الذي لم يبرد دمه بعد، بل كانت ابتسامات البعض وضحكات البعض الآخر قد شقّت طريقها إلى الشفاه، وكأنّ هؤلاء القوم لم يكونوا إلى وقت قريب يبكون الشهيد. استغربت أمر هذه النفس البشريّة التي تنتقل في لحظة من النقيض إلى النقيض، دون أن يجد الحياء إليها سبيلاً. أيكون هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر، أنّني أنا الغريب، بما أحمل في نفسي من هموم وأفكار وهواجس لا تنتهي، يجب أن أتوافق مع ما يقع؟ أأكون قد أخطأت طريقي إلى هذا العالم القاسي البارد، الذي لا يقيم للعواطف الصادقة أيّ اعتبار؟ والله، لا أكاد أفهم شيئًا! لا يبدو أنّني

Twitter: @ketab_n

سأفهم في المستقبل هذا العالم الغريب، فلأكفّ عن محاولة الفهم، فليس من ورائها أيّ فائدة تُجنى غير مزيد من الضياع والشرود.

لمّا بلغت هذا الحدّ من التأمّل في الوضع الذي يتجسّد أمام بصري، قرّرت أن أنسحب من الخيمة وأهيم في الخلاء، لقد ضاقت نفسي بما حملت من هموم، وزادها تصرّف الناس الأرعن همًّا وغمًّا، لم ينتبه إليّ أحد وأنا أنسلّ خارجًا، فالجميع كان منشغلاً بالطعام، يلوكه بنوع من الاستغراق الذي يُحسد عليه.. مضيت بخطوات متعبة، أتوكّأ على عصاي وقد نال منّي الحزن بغيته.. أحسست أنّني أوشك على المرض وألزم الفراش، فلأوّل مرّة في حياتي يكتسحني هذا الوهن اللازب.. دائمًا كنت معافى ولم يحتضني فراش المرض يومًا.. كان الفرسان قد جهّزوا الماشية بما تحتاجه ليومها هذا من طعام، فعلوا ذلك بتحريض من الشريف مولاي عليّ، رأفة بي بعد المصاب الجلل في صديقي إبراهيم، وإشفاقًا على المعطي الذي بدا له عاجزًا عن القيام بهذا الأمر بمفرده.

خطوت خطوات نحو الخارج، استقبلتني النسائم الباردة، أنعشت نفسي بملمسها اللطيف، تنسّمتها بكثير من الشغف، فقد كانت روحي المتعبة في حاجة ملحّة إليها. كان المطر قد توقّف في تلك الأثناء، فخلّف في الطبيعة لآلئ تنتشر على امتداد ذؤابات الأعشاب، زادها شروق الشمس المفاجئ بهاء

Twitter: @ketab_n

وروعة، فتمدّدت يد هذا الجمال المفاجئ إلى نفسي، ولامستْها بلطف وحنان، وكأنّها بذلك تطهّرها من الأوضار والأحزان التي تعلّقت بها، شعرت بانتعاش طارئ يكتسحني من حيث لا أدري.. في تلك اللحظة نفسها، أخذت قراري بكوني أحتاج إلى نفسي معافى، ولن أسمح لها بالارتخاء والخضوع لرغبة المرض كي تفعل بها ما تشاء.

كان هذا القرار مصحوبًا بعزم يعضد نفسي ويدعمها، لقد عزمت على أن أجعل من ذكرى إبراهيم مبعث قوّة وليس ضعفًا، فكّرت فيه بشكل مختلف، قرّرت أن أجعله حيًّا بين أضلعي، فإن كانت الجماعة قد اعتبرته شهيدًا لم يمت وإنّما هو حيّ يرزق عند ربّ العالمين، فإنّني سأجعل منه رفيقي الأبدي، أخصّص له أجمل مكان بين الضلوع ليسكنه، أحدّثه في خلوتي وأستشيره في أموري، وربّما أستغني بصحبته عمّا سواه من البشر.. وبالفعل، ما إن اتّخذت هذا القرار حتى انتعشت نفسي، وأحسست بشيء يتحرّك بداخلي، وأنّ اقتحامًا مفاجئًا قد حصل لي، وكأنّني أصبحت مسكونًا بكائن آخر، هذا الأمر بعث الكثير من الطمأنينة إلى نفسي، ثم ما لبثتُ أن بدأت أخاطب ضيفي الجديد بما يثقل على نفسي ويشغلها، والغريب أنّني بدأت أتلقّى أجوبة منه، فاكتسحتني نتيجة لذلك سعادة لا توصف.

مساء، حين أويت إلى الكوخ، التقيت بالمعطي الذي لا

Twitter: @ketab_n

يزال مأخوذًا بكمِّيَّة اللحوم التي أجهز عليها، فهو مثلي تمامًا لم يتصوّر أبدًا أنّه يمكن لناس مهما كان وضعهم أن يقدّموا لضيوفهم هذه الكمِّيَّة من الطعام، التي كادت تطير بعقله.. حين كان المعطي يتحدّث عن ذلك، كنت أنا مشغولاً بالحديث مع إبراهيم، فلم أحفل كثيرًا برطانته التي لا تنتهي. تحدّثت مع صديقي عن السياسة والدين والسلطة والسفر والحياة ومجاهدة النفس، وعن أشياء لا يعلمها غير الله ونحن الاثنين، لأنّني إلى تلك اللحظة كنت ما أزال أحدّثه سرًّا، فلا يطّلع على حديثنا أحد.

فجأة، وصلتنا دقّات ملحّة على باب الكوخ.. كنت أنوي أن لا أفتح الباب كالعادة إلّا بعد مرور فترة معقولة، تتيح لمن طرق الباب التنحّي جانبًا، لكنّ الطرقات توالت، فهممت أن أفتح الباب، غير أنّ بعض التردّد ظلّ يمسك بتلابيبي، بيد أنّه سرعان ما طوّحت به بعيد حين سمعت الشريف الشرقاوي يناديني باسمي، دلفت نحو الباب وفتحته، فإذا بالشريف نفسه ينتصب أمامي. ارتميت على يده لأقبّلها، لم يسحبها كما يفعل ابنه مولاي عليّ.. أخذت من تقبيلها كفايتي، فأمطرني بوابل من الدعاء، ثم قال بكثير من التأثّر:

ـ عزاؤك وعزاؤنا واحد في الفقيد. أعرف أنّه كان يعزّك وكنت تعزّه.

لم أنبس ببنت شفة، فقط أطرقت ببصري إلى الأرض، فتابع قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ يبدو أنّك شابّ مبارك، هل تعرف أنّ مولاتك فاطمة الزهراء قد شفيت من مرضها.

ـ زعزع نفسي هذا الخبر الذي لم أتوقّع أن أتوصّل به في هذه الفترة بالذات، اخترقني إحساس بالفرح، حاولت كتمه في داخلي، فالتزمت الصمت، فأتاح ذلك للشريف ليتابع قائلاً:

ـ ترغب مولاتك لالة فاطمة الزهراء أن تشكرك بنفسها، وقد تزورك غدًا أو بعد غد.

لا أكاد أصدّق كلّ ما يحدث! أخذت من الشريف طعام العشاء. وانسحبت نحو جوف الكوخ.. مددت الطعام للمعطي الذي تلقّفه بلهفة، وأويت إلى فرشتي لأحدّث صديقي إبراهيم فيما استجدّ في حياتي خلال هذا اليوم المشهود.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في ذلك المساء المشهود، الذي انحفر في الذاكرة بإزميل البهاء، سمعت طرقات على الباب، فعرفت أنّ أحدهم قد أحضر طعام العشاء. منحت الطارق مهلة حتى ينسحب، لكنّ الطرقات ألحّت، لم تكن قويّة، وإنّما بدت واهنة وخافتة، تساءلت في نفسي «من يكون هذا الطارق، الذي يخشى أن يخدش حياء المساء؟»، قمت من فرشتي وتقدّمت بخطوات حذرة، وحين بلغت الباب توقّفت، وقلت بصوت مسموع:

ـ من بالباب؟

ردّ عليّ صوت أنثوي يكاد يغرق في بحيرة حيائه:

ـ افتح.. أنا فاطمة الزهراء.

ـ ارتجّت بي الأرض، فخضّت كياني، لا أعرف كيف

Twitter: @ketab_n

أتصرّف تجاه هذا الوضع الطارئ، تجمّدت في مكاني لا أقوى على الحركة. غلّة مفاجئة اكتسحت حلقي، تمنّيت لو أنّ الأرض تنفتح وتبتلعني قبل أن يقع ما يحدث لي الآن.. أبكلّ هذه البساطة تأتي الزهراء إليّ، حاملة في عينيها أسباب القضاء إليّ؟..

حين تأخّرت في الاستجابة لندائها، أعادت الكرّة قائلة:

ـ لا تخجل، افتح يا أبا يعزى.

لم أملك حينذاك بدًّا من أن أخطو خطوة نحو الأمام، وأفتح الباب بتمهّل شديد، وكأنّني أخشى على نفسي من هذا البزوغ المفاجئ للزهراء، تدريجيًّا انفتح الباب، فإذا بي وجهًا لوجه أمام المصير، أمام القدر، أمام ما لا أتحمّل رؤياه، حينذاك تأكّدت بأنّها نهايتي الحتميّة، أبدًا لن أقوى على العيش هادئًا هانئ البال بعد هذا التجلّي الكاسح. لقد كانت الزهراء فوق التوقّع، أحاط بي نورها من كلّ جانب، مشعّة كانت، تحيط بها هالة من نور، تمنّيت من أعماق قلبي لو أنّني لم أحظَ برؤيته، إنّه النور الذي سيتعب قلبي وأنا أركض حياتي كلّها وراءه، لعلّي أظفر منه بقبس، إذا بي أركض وراء السراب.. ابتسمت الزهراء ابتسامة رائقة، فأضاءت شمس ابتسامتها شفتيها اللتين انفرجتا، فلمع بياض أسنانها اللامع، فأضفى عليها نورًا على نور، لم يعد القلب قادرًا على تحمّل وهج هاته الأنوار، التي انبلجت من حوله فجأة، فأفقدته اتّزانه

Twitter: @ketab_n

وأعشت بصره، ولم يعد يدري أين يولي وجهه. ترنّحت الكلمات في لساني ولم تقوَ على الانطلاق، فاستمرّيت في وضعي المرتبك، أتحاشى النظر إلى قرّة القلب ومهجته، وكأنّني أخشى على بصري من الانخطاف.. حين تأكّدت من أنّني أبدًا لن أنطق كلمة، همستْ بصوت سيتردّد صداه في دواخلي إلى ما لانهاية، قائلة:

ـ أشكرك يا أبا يعزى، وأتمنّى أن أردّ يومًا جميلك بما يستحقّه.

بيني وبين نفسي، قلت «لقد رددت الجميل يا مولاتي، فهذا أكثر ممّا أستحقّه، مدّت الزهراء طعام العشاء، ورداء أخضر قالت بأنّه هديّتها لي، التي تتمنّى أن لا أردّها. تناولت منها العطايا، ثم انسحبت خجلاً يكاد الحياء يعتصرني. رددت باب الكوخ عليّ، فإذا بي في حالة لا يمكن تحمّلها، كنت في وله وعشق واضطراب واضح، ناولت المعطي الطعام، فيما قصدت فرشتي. تفقّدت الرداء الأخضر، فإذا به عبارة عن جبّة محبوكة الصنع، زاهية المظهر، على الفور ارتديتها وتمدّدت في مكاني، أجترّ تلك اللحظات التي ستسكنني عمري كلّه، سأسترجعها بشكل مستمرّ، ستصبح الزاد الذي يمنحني الطاقة على الاستمرار في الحياة. كان لزامًا عليّ والحال هاته أن أشرك صديقي إبراهيم فيما حدث ويحدث لي، وإذا به يمثل أمام عينيَّ بكلّ ألقه المعهود، مبتهجًا، خاطبته قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ أرأيتها يا إبراهيم.. أرأيتها؟

نظر إليّ مبتسمًا، ثم قال:

ـ نعم، رأيتها.. لقد كانت فوق الخيال، وأُغبطك عليها يا صديقي.

حرّك كلامه في قلبي شجنًا متواريًا، لا يكاد يعبّر عن نفسه إلّا من وراء حجاب، تدبّرت كلامه، ثم قلت:

ـ وما السبيل إليها يا صديقي؟

حاسمًا ردّ إبراهيم:

ـ لا سبيل يا صديقي.. لا سبيل، اكتفِ بما وصلت إليه ولا تطمع في زيادة.

عرفت أنّ كلام صديقي هو الحقّ عينه، فقرّرت حينذاك أن أكتفي بما حصلت عليه، الحبّ ليس مشروطًا بتحقيق ما نرغب فيه، الحبّ هو تلك الإشراقة التي لمعت في قلبي وفي ذهني، وأشعر بها تتمدّد في طريقي لتنيره مدى العمر. الزهراء أكبر من أن تُرتجى أو تُنال، أخجل من نفسي أن أعاملها كما يمكن أن تعامَل أيّ أنثى. ما كنت ولا كنت إن فعلت ذلك.. هكذا حسمت أمري. التفتت نحو إبراهيم، وخاطبته قائلاً:

ـ صدقت صديقي إبراهيم.. لقد عرفت طريقي، ولن أضيّع وقتي في أمور لا فائدة ترتجى منها.

Twitter: @ketab_n

حينذاك، سمعت المعطي المنهمك في التهام الطعام يخاطبني قائلاً:

ـ مع من تتحدّث يا أبا يعزى. هل جننت؟

لم أردّ عليه بشيء، لكنّني علمت من خلال كلامه أنّني أخطو بثبات نحو طريق اللّاعودة.

نمت تلك الليلة على إيقاع الزهراء وهمسها، أو بالأصحّ لم أنم، لأنّني حتى وأنا في حضن الكرى واصلت حديثي بشكل متواصل مع إبراهيم..

صباحًا، أخرجت البهائم من حظيرتها، وتوجّهت بها كالعادة إلى المرعى، تصاحبنا الكلاب بنباحها والعصافير بزقزقاتها الصباحيّة المتواصلة.. الأرض يكتسحها الندى، والبرد يخترق العظام فيذكّرها بقوّة الطبيعة وسطوتها! كنت لا أزال أرتدي جبّة الزهراء الخضراء، فبدوت كأحد المجاذيب، الذين طالما رأيتهم يتجوّلون من مكان إلى مكان حاملين أعلامهم المزركشة، ويمارسون طقوسهم الغريبة. استقرّ بي الحال في المرعى، تطلّعت إلى المعطي بمشيته المميّزة، يحاول لمّ شتات الشويهات.. ابتسمت في قرارة نفسي، دون أن أسمح للابتسامة أن تشقّ طريقها نحو مبسمي. استطاع المعطي بعد لَأْيٍ أن يتحكّم في الماشية وينظّم انتشارها في المرعى، ثم دبّ نحوي، تدفعه الرغبة في الحديث في كلّ ما يخطر له على بال، تحسّست جرابي وأخرجت الناي، وتأمّلته بكثير من

Twitter: @ketab_n

الحنين. لقد اشتاقت نفسي إلى عزف إبراهيم، دنا المعطي ولمح القصبة بين يديَّ، فقال مستغربًا:

ـ هل تحسن العزف عليه؟

رددت عليه بالنفي، لكنّ الحقيقة أنّني أعزف عليه دون أن أعزف، عزفي مختلف، أمسك القصبة، وأسترخي، فإذا بالعزف ينطلق في ذهني، لا أعرف كيف أشرح ذلك، إنّه أمر صعب التصديق، لكنّه يحدث، ما إن أمسك القصبة وأضمّها بعطف وحنان بيديّ الناشفتين، حتى تتهادى الألحان بهيّة ورائعة، كنت أستمرّ في ذلك حتى أنال كفايتي، ثم أعيد الناي إلى مكانه في جرابي. كنت أشعر وكأنّ إبراهيم يعزف حقًّا عليه، وكان ذلك يكفيني ويُشبع رغبتي وشوقي وشغفي.

بينما كنت في ذلك الوضع الذي يتداخل فيه الواقع بالخيال، الحلم بالحقيقة، ويمتزج فيه صوت المعطي بعزف إبراهيم، إذ تلوح لي من بعيد هيأة شخص ما يتوجّه نحونا بإصرار، انشغلت به إلى حين، راقبته وهو يدنو تدريجيًّا منّا، كان ينمو باستمرار، وهو يلتهم الطريق نحونا.. حين دنا منّا بشكل كبير، تبيّنت فيه أبي بمشيته التي أعرفها جيّدًا، وأميّزها ولو كان وسط العشرات من المشاة. فزع قلبي لمعرفته، لقد توقّعت أن ينقل لي خبرًا سيّئًا، فهو غالبًا ما لا يفعل غير ذلك، وعلاقتي به منذ أن التحقت بالبيت الكبير، تنحصر في الزيارة الشهريّة لأخذ الكيسين من الحبوب، وبعضٍ ما يجود به

Twitter: @ketab_n

الشريف الشرقاوي، خاصّة في فترة منح الزكاة للفقراء، إذ أصبح يخصّنا بالنصيب الأكبر منها. في نفسي قلت «إن كان قد أتى من أجل الحبوب، فليس هنا مكانها. إنّه لا بدّ يحمل خبرًا حزينًا».. اضطربتْ دواخلي على إثر هذا الكلام الذي جدّثت به نفسي، انتفضتُ من مكاني واقفًا كي أستقبله، أشرف عليّ ودون أن يحييني، قال لي بلهجة خالية من التأثّر: «جدّتك تلحّ في طلبك، يبدو أنّها ستودّعنا». ظللت محملقًا في خلقته غير مصدّق لما تفوّه بي، فإذا به يضيف قائلاً «اذهب إليها. أنا سأتكفّل بالبهائم إلى حين عودتك، ولكن لا تتأخّر عليّ.. إيّاك أن تتأخّر.. لا أدري لِمَ تصرّ على حضورك كلّ هذا الإصرار»!

وعدته بأنّني لن أتأخّر، وانخرطت في الطريق، تلتهمها قدماي بكثير من الإصرار، اصطدمت بكثير من الحجارة، فلم أهتمّ بذلك، فقط كانت صورة جدّتي تحضر قويّة في ذهني، متألّقة بهدوئها المحبّب إلى النفس، وابتسامتها الأزليّة التي لا تفارق وجهها الأسمر. كانت جدّتي تختزل في نفسي الكثير من الأمور، التي يمكن أن أعرفها عن الحياة، لذا كانت لها مكانة خاصّة في نفسي، ولا أتصوّر أبدًا أن تغادر هكذا دون أن أظفر بنظرة أخيرة منها. سعيت إلى ذلك بكلّ ما أملك من قوّة، ولم أوفّر جهدًا في الوصول إليها في الوقت المناسب.. لاح لي بيتنا في مكانه القفر، فبدا لي بائسًا بشكل لا يمكن تصوّره، أبدًا لم أره سابقًا بمثل ما أراه اليوم.. قميئًا ومنعزلاً

Twitter: @ketab_n

وكئيبًا بدا لي.. مضيت نحوه، وقلبي يتراكض في صدري محاولاً القفز من مكانه.. تسلّلت إلى البيت، فإذا بي أجد أفراد أسرتي يتحلّقون حول جدّتي في الغرفة المصنوعة من القشّ، التي نطلق عليها «النوالة»، والتي كانت في شكلها تشبه خيمة ترتفع نحو الأعلى على شكلٍ مخروطي تتلقّى أعمدتها في الأعلى. ما إن وقع بصر الجدّة عليّ، حتى انفرجت نفسها وتألّقت الابتسامة على شفتيها.. أشارت إليّ بالدنو، فسح لي الجميع المجال، اندسست بجانبها، محاولاً تجميد دمعة تكاد تخونني وتنحدر. طلبت منّي جدّتي أن أقرّب أذني منها، وكأنّها ترغب في أن تخصّني بكلام سرّي لا يحقّ لغيري سماعه. استجبت لها، فقالت هامسة أمام استغرابي «أعطني يدك أقبّلها، فهنيئًا لمن سعد برفقتك». تردّدت في الاستجابة لها. لقد كبّلني الخجل واستحييت أن تقبّل جدّتي يدي، لكنّها أخرجت يدها من تحت غطائها، ومدّت نحو يدي أمسكتْها وسحبتْها نحوها، ثم طبعت عليها قبلة مرتجفة واهنة وخائفة، لكنّها سعيدة. طلبت بعد ذلك ماء، ارتشفت بعضه، ثم سلّمت الروح إلى بارئها.. لا أدري لِمَ لم أشعر بالحزن لموت جدّتي، فقط ظللت ملازمًا للصمت، وأنا أسمع صراخ أفراد أسرتي يرتفع في الأجواء. انسحبت من هناك بصمت وتوجّهت نحو المرعى، حيث ينتظرني أبي. كشخص فاقد للوعي، تابعت طريقي.. كانت الشمس قد توسّطت كبد السماء، تحت وهجها المتنامي تابعت المسير، حتى بلغت مرادي.. حللت بالمرعى. سألني

Twitter: @ketab_n

أبي عمّا حدث، فأجبته:

ـ لقد قُضي الأمر.

ردّ عليّ مستوضحًا:

ـ هل ماتت؟

من دون اهتمام رددت عليه:

ـ لقد قُضي الأمر.

شتمني بكلماته المعهود متّهمًا إيّاي بالحمق، ثم غادر المكان. حاول المعطي استجلاء حقيقة الأمر منّي فلم أردّ، لقد كنت قد انخرطت في حديث سرّي وحميمي مع صديقي إبراهيم، يغنيني عن محادثة غيره.

مساء، عدنا إلى البيت الكبير، ففاجأني الشريف الشرقاوي بإقامة حفل عزاء لجدّتي! لقد أمر بإعداد «عشاء» تأبينًا لها. أثّر في نفسي هذا الأمر، وتأكّدت أنّه من أفاعيل الزهراء. نصبت خيمة، وحضر العزاء بعض الرجال وكان أبي من بينهم، فتناول الحديث الكثير من الأمور، وتطرّق بالخصوص إلى أمور البلاد. كان أحد المتحدِّثين كهلاً يبدو على مكانة عظيمة، يلوح ذلك من هندامه وطريقة حديثه، وممّا قاله إنّ الأمير يوسف بن تاشفين قد توفّي، أو أنّ ابنه عليّ بن يوسف خلفه في الحكم وقد استطاع القضاء على تمرّد قاده ابن عمّه بفاس، كان المتحدّث يركّز على أنّ عليًّا، هذا الأمير، ضعيف الحيلة

Twitter: @ketab_n

رغم ضلوعه في العلم والفقه، ولكنّه غرّ لا خبرة له في أمور السياسة وأحابيلها، وأنّ الجماعة المناوئة له لا بدّ أن تنال مرادها في وقت قريب، فقد قيّض الله لها شخصًا اسمه «المهدي بن تومرت» يتميّز بميزات تؤهّل دعوته للنجاح: عمد إلى مخاطبة الناس بلسانهم، حتى إنّه صاغ عقيدة التوحيد باللسان الأمازيغي لتصبح في متناول الناس، ودعا أنصاره إلى الصدع بالحقّ من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنّه يروّج بشكل موسّع لفكرة «المهدي المنتظر» حتى يترقّب الناس ظهوره، ليخلّصهم من الضلال ويمضي بهم في طريق الهداية والرشاد.. ولم يكتف ابن تومرت بذلك، بل عمد إلى بناء تنظيم محكم ستكون له كلمته فيما بعد، فكوَّن ما أسماه «مجلس العشرة»، الذي انتقى أفراده من رجال أشدّاء معروفين بالورع والتقوى والدهاء السياسي، ثم «مجلس الخمسين» الذي مثّل فيه القبائل، حتى يضمن ولاءها.

استمعت لكلّ ذلك بغير حماس ولا تركيز، فلقد كانت نفسي منشغلة بأمور أخرى لا أفهم ـ أنا نفسي ـ تفاصيلها الدقيقة، فمصيري كان يتشكّل في مكان ما، ويتعيّن عليّ أن أستجيب للنداء الخفيّ الذي يناديني، ولن أتردّد في الاستجابة له، فلم يعد هناك من شيء يشدّني إلى هذا المكان، ولا غيره. أشعر بهوى متزايد تمكّن من نفسي، وما فتئ يجرّني نحو الرحيل، ماذا أفعل يا ربّي؟ وكيف لي أن أعرف إن كنت أمضي نحو اليقين، أم أنّ الوهم تملّكني، ويجرّني جرًّا نحو

Twitter: @ketab_n

شباك الشيطان اللعين؟

كنت، وأنا في حضرة المعزّين، أهيم في دنياي الخاصّة بي. أحدّث من طرف خفيّ خليلي إبراهيم، أسأله فلا يحير جوابًا، أستفتيه فلا يفتي بشيء، وحده الصمت كان يلفّني، يدثّر جسدي النحيف شديد الطول، بدثاره الأبديّ.

تفرّق الجمع، فزحفت نحو الكوخ كي أرمي هناك في جوفه جسدي المتعب وروحي الأشدّ تعبًا، روحي التي تتطلّع بشغف إلى الانعتاق من ربقة الجسد اللعين. تُرى هل يتحقّق لها ذلك؟ وإلى أيّ مدى يتعيّن عليّ أن أعاني من هذا الوضع، حتى يتجلّى لي الطريق واضحًا منيرًا سالكًا لا تشوبه شائبة؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لم أعد مطمئنًّا إلى الدنيا، فلقد كشفتْ لي عن وجهها الحقيقي، الذي يتعيّن على اللبيب عدم الانخداع بغيره، تعلّمت أنّ طبعها الغدر، فاحتميت بنفسي منها بعدم الطمع فيها، أو السعي وراء سرابها الخادع، فعلى بعد خطوات من الكوخ الذي أقبع فيه، يوجد الوجه الجميل البرّاق للدنيا، الذي يجعلني مجرّد النظر إليه أحوز سدرة المنتهى، غير أنّي انكفأت على ذاتي قامعًا لرغباتها، حريصًا على أن أمسك لجامها وأوجّهه نحو وجهة أخرى أضمن وأسلم. أعرف أنّ الزهراء من أصل شريف، والأشراف لن يسمحوا لي، أنا العبد الأسود مثقوب الأذنين، أن ألوّث شرفهم، فأحظى بالنجمة المتألّقة العالية، التي تأكّدت بأنّ قربي منها يحرقني وبعدي منها يحرقني، وحريق لا يختلف كثيرًا عن حريق! قضيت أيّامي على هذه الحال زمنًا طويلاً، متّخذا من الحديث مع قرين روحي إبراهيم أهمّ سلوتي. تطرّقت وإيّاه

Twitter: @ketab_n

لمواضيع شتّى، لم تخطر لي من قبل على بال، وكان ينير طريقي بكلامه النيّر الذي غالبًا ما يحسم الأمر بكلمات قليلة ودالّة.. هذا الانخراط في الحديث مع إبراهيم، جعلني أستنكف عن الحديث مع غيره، وهكذا تدريجيًّا أخذت أنزوي عن الناس ولا أحدّثهم إلّا للضرورة القصوى. كنت أحيانًا أرى نظراتهم غريبة حين يحدّثونني، وكأنّ شيئًا من الخوف يلتمع في أعينهم تجاهي.. لم أحفل بذلك كثيرًا، كنت أعرف أنّ أمر الناس غريب، وأنّهم لا يعدمون الوسيلة للتدخُّل في حياة غيرهم، لذا لم أبذل أيّ مجهود لتجنّب نظرتهم الغريبة المتوجّسة.

في أحد الأيّام، بعد أن أعدت البهائم إلى حظائرها قبيل المساء بقليل، دخلتُ الكوخ كي أنغمس في وحدتي، إذ وصلتني ضجّة موسيقيّة، ما فتئت ترتفع في الأجواء، انتفضت من مكاني كالمسحور، منجذبًا خرجت من الكوخ أمضي نحو مصدر الموسيقى، في الخارج، رأيت عددًا من الرجال يتقدّمون في موكب صغير، أحدهم يعزف على القصبة وآخران يحملان دفوفًا يضربان عليها بعصيّ صغيرة، لم أتمالك نفسي، فتقدّمت نحوهم هائجًا مائجًا، لا أدري ما يحدث لي. انخرطت في الرقص بشكل هستيري، جعل الرجال يتوقّفون في أمكنتهم ويحيطون بي من كلّ جانب، ويستمرّون بحدّة في عزفهم المثير، استمرّيت في «الجذب»، أحرّك بقوّة ورشاقة أطرافي ورأسي، وأتنقّل من مكان إلى آخر، فتملّكتني حالة من السمو، حتى إنّني لم أعد أشعر بجسدي، وكأنّني انفصلت عنه. أثار انتباه الموسيقى والرقص جميع أهل البيت الكبير، فخرج الرجال والنساء بحثًا عن الفرجة،

Twitter: @ketab_n

ازداد الحماس في أنفس الرجال العازفين، فضاعفوا من أدائه، حتى إنّهم نالوا إعجاب الشريف الشرقاوي الذي استضافهم تلك الليلة، وذبح كبشًا على شرفهم، فأمطروه بوابل من الدعاء، وكافأوه بخلق أجواء الفرجة حتى وقت متأخّر من الليل.

في تلك الليلة، ظهر ملمح جديد من ملامح شخصيّتي. حقيقة، لم أكن أرغب أن تراني الزهراء في ذلك الوضع، لكن ما حدث قد حدث، ولا يمكن تغييره، فقط يجب عليّ أن أتعامل معه بالشكل المناسب.. في الصباح الباكر، سمعت طرقات على الباب، فإذا بي وجهًا لوجه مع أحد أفراد الفرقة الموسيقيّة المتجوّلة، حيّاني بأدب ثم خاطبني قائلاً:

ـ يبدو أنّ مكانك الحقيقي معنا، لِمَ لا ترافقنا وستجني من ذلك الخير العميم؟

عرفت بأنّ رقصي وقع في نفسه موقعًا حسنًا، وأنّه يضمن الفرجة المتوخّاة، ليكون الإقبال على فرقتهم أكبر، فيجنون ـ نتيجة لذلك ـ المزيد من العطايا.

اعتذرت من الرجل بلطف، وأخبرته بأنّني لا أحسن الرقص، فأنا نفسي لا أعرف كيف حدث ذلك، لم أكن أنوي الرقص مطلقًا، ولا خطر ببالي، كلّ شيء وقع فجأة وبدون قصد منّي.

ـ متحمّسًا، أضاف الرجل:

ـ هذا ما أقصده بالضبط، فأنت مجذوب بالفطرة، ورفقتنا ستلبّي رغبتك العميقة في الرقص.. فقط، تعال معنا ونحن

Twitter: @ketab_n

سنتكفّل بالباقي، فالموسيقى تحرّك في نفسك سواكنها، وتحفّزك بالرّغم عنك على الرقص.

رأيت أن لا جدوى من مجادلة الرجل، فقرّرت أن أنصرف قائلاً:

ـ ورائي مخلوقات جائعة تنتظر من يطعمها..

انصرفت، وتركت خلفي الرجل بحسرته وأسفه.

هذا الحدث انحفر في ذهني، وبدأت أحنّ إليه في كلّ وقت وآن، لكنّني كنت أخفّف على نفسي بعزف إبراهيم، الذي كان يحضر في ذهني وقلبي كلّما احتجت إليه، يغنيني إلى حين عمّا حرمت نفسي منه من متع.

في ليلة ما، بعد أن تحدّثت وإبراهيم في مواضيع مختلفة، تسلّل النوم إلى جسدي، فرأيت حلمًا غريبًا، رأيت إبراهيم خائفًا، ترتعد فرائصه، وهو يحذّرني من خطر وشيك، لم أر إبراهيم في وضع مشابه أبدًا، كان في حال صعب، ممزّق الثياب، مشعّث الشعر، وكأنّه مطارد من طرف الجنّ أو العفاريت. صباحًا، حينما استيقظت وجدت بقايا الحلم ثقيلة على قلبي، تناوشني بكثير من الإصرار. فكّرت في أنّ الأمر مجرّد أضغاث أحلام لا تقدّم ولا تؤخّر، لكنّ الحقيقة أنّني كنت أعرف نفسي جيّدًا، وكنت متأكّدًا من أنّ شرًّا مستطيرًا وشيك الوقوع. في نفسي، قلت «اللّهمّ إنّا لا نسألك ردّ القدر، وإنّما نسألك اللطف فيه».

Twitter: @ketab_n

في المرعى، ظللت أجترّ مرارة الحلم، وقلبي واهن يخفق بشدّة، ينتابه رعب متنام من حدوث أمر جلل، قد تكون فيه نهايتي. كان المعطي منشغلاً بالكلاب يرميها بالحجارة بسبب أو بغير سبب. لحدّ الآن، وبعد مرور هذه الفترة الطويلة على حلوله بالبيت الكبير، لم يتعلّم بعد كيف يُعامل كلابه باللطف المطلوب، لذا ظلّت هذه الحيوانات تنفر من التعامل معه، تخافه وتكرهه، وأبدًا لا تدنو منه بشكل كبير، دائمًا كانت تحافظ على مسافة معقولة، حتى لا يفاجئها غدره المقيم في نفسه، والذي لا يبرحها أبدًا.

كنت في تلك اللحظة في حاجة قصوى إلى حضور إبراهيم، كي أقصّ عليه رؤياي، لعلّه يفيدني في فهمها وكشف مستورها، وبالفعل جاء إبراهيم، غير أنّه ظلّ صامتًا حزينًا لا ينطق بكلمة واحدة، استغربت صمته وإصراره على الظهور بهذا المظهر البائس، غير أنّه لم يتأثّر بكلامي، فعرفت أنّ المُصاب سيكون شديدًا، وأنّ وقعه سيكون مزلزلاً عليّ وعلى كلّ من حولي.. لكنّني مع ذلك حافظت على هدوئي، واستمرّيت في مخاطبة إبراهيم في ما يشغل بالي من أمور شتّى، ألقت بكلكلها على نفسي.

مساء، التجأت إلى فرشتي، وأنا أحاول أن أتجاهل الرسالة التي مرّرها الحلم إليّ، لأنّني أعرف أنّني لا أستطيع التصرّف إزاءها بأيّ تدخّل؛ يمكنه أن يغيّر المصير أو يحدّ من قسوته على الأقلّ! فحتى لو حذّرت من يهمّني أمرهم ممّا سيحدث، فإنّ لا

Twitter: @ketab_n

أحد سيصدّقني أو يأخذ كلامي على محمل الجدّ، لا ريب سيقولون:

ـ إنّه مجرّد كلام رجل مجذوب أقرب إلى الهبل.

تسلّل النوم إلى عينيّ تدريجيًّا، فاستسلمت له، لعلّه ينقذني من هواجسي ومن المخاوف التي استبدّت بي بشكل لم أتصوّره. مضى الهزيع الأوّل من الليل في صمت مريب، حتى إنّ نفسي أضحت فارغة من كلّ إحساس أو شعور، كنت فارغًا بحقّ.. لا أفكار ولا أحلام ولا هواجس، فقط فراغ شاسع يكتسحني، حرت في تفسيره وأنا في كنف الفراش، في حالة وسطى بين النوم واليقظة، وإذا بي على حين غرّة أسمع ضجّة وحركة قويّة وأضواء تشتعل، تتسلّل إلى الكوخ عنيدة وقويّة. أصابني الهلع، توجّهت نحو المعطي فأيقظته، استغرب ذلك، لكنّه حين انتبه إلى الحركة والأصوات والوهج الذي تسلّل نوره إلى الكوخ، انتفض من مكانه وكأنّ عقربًا لسعته. خرجنا من الكوخ، فإذا بي أرى ما تمنّيت عمري كلّه لو أنّني لم أره. النيران تشتعل في البيت الكبير، ومن حوله فرسان ملثّمون يرتدون السواد ويركبون أحصنة نافرة متوتّرة يطوفون من حول البيت، أصابني الرعب من هذا المشهد، حاولت أن أقتحم البيت رغم النيران، لكنّ فارسًا توجّه نحوي شاهرًا سيفه، وهو يقول لي:

ـ ابتعد أيّها العبد الأسود، دع ملّة الكفر والعصيان تلقى مصيرها المحتوم.

فهمت حينذاك ما يحدث، ومرّ أمام بصري كلّ ما وقع

Twitter: @ketab_n

بتفاصيله. لقد بلغ أهل الأمر والنهي في البلد أنّ البيت الكبير يأوي مناوئين لهم، وأنّ ابنهم الشريف الشرقاوي مولاي عليّ أحد هؤلاء، فقرّروا أن ينتقموا منهم شرّ انتقام، فأتوا متسلّلين تحت جنح الظلام وارتكبوا جريمتهم الشنعاء، لتكون عبرة يخيفون بها كلّ من سوّلت له نفسه الالتحاق بصفّ الدعوة الجديدة، التي عرفتُ أنّها تتقدّم بثبات نحو تحقيق أهدافها. حين تيقّنت من كلّ ذلك، أصابني الذعر، فانخرطت في صراخ هستيري، فتشنّجت وأنا أتمرّغ على الأرض، خاصّة لما وقع في نفسي ما يمكن أن يحدث للزهراء، لم أتصوّر أبدًا أن تقتات النار جسدها الطاهر، وأن تكون هذه النهاية المفجعة مصيرها. بكيت بحرقة أثّرت في المعطي، الذي دنا منّي وأخذ يواسيني بكلمات لم أسمعها جيّدًا، تألّمت بعمق وأنا أتطلّع إلى النيران التي بدت متوهّجة وقاسية، تفتقر إلى أيّ ذرة حياء، كيف لها أن تتجرّأ وتلتهم جسد الزهراء بدون أن تخجل من نفسها، تمنّيت لو قلت في تلك الأثناء «يا نار كوني بردًا وسلامًا على الزهراء»، لكنّني عرفت بأنّ ذلك لن يحدث أبدًا، فقلت: «يا نار كوني بردًا وسلامًا عليّ».. أعرف أنّ الزهراء قد لاقت مصيرها المحتوم، وأنّ هذه النار ستشتعل في قلبي وجسدي وروحي إلى ما لانهاية، سأسعى جاهدًا لإطفائها بكلّ ما أملك من قوّة، لكنّني لا أضمن النتيجة، كانت النيران تزداد استعارًا مع الوقت، ويزداد قلبي معها احتراقًا. لم ينجُ أحد من أسرة الشريف غير مولاي عليّ وأخوته الذين كانوا بعيدين عن البيت تلك الليلة. أخذ الفرسان قطيع الماشية غنائم لهم، ومضوا في طريقهم مزهوّين بالنصر الذي تحقّق. لزمت مكاني أنوح كما

Twitter: @ketab_n

تفعل النساء، أبكي الزهراء وأبكي نفسي، ولا أجد عزاء في شيء.. ظللت على هذه الحال حتى انسلّ الصباح، وأخذ ضوؤه ينتشر تدريجيًّا ليقضي على بقايا الظلمة التي تسيّدت الدنيا إلى حين.. ظهر الخيط الأبيض من الخيط الأسود، وانكشف حال الدنيا عن واقع جديد، لا زهراء فيه ولا بهائم ولا مرعى ولا خبز شعير ولا كسكس ولا لبن المساء.. بدوت أعزل، ولا يمكن لحياتي أبدًا أن تظلّ كما كانت قبل حين، لا بدّ أنّ تغييرًا عميقًا سيطولها، فلا مجال للعناد. تحدّثت مع المعطي كلامًا لا يقدّم ولا يؤخّر، طلب منّي أن نغادر سويًّا إلى حيث نجد لأنفسنا رفقة جديدة، بهائم نهتمّ بها معًا، فلقد تأكّد من أنّ رفقتي تناسبه، وأولى بنا أن نفكّر في حياتنا، لأنّ ما حدث قد حدث ولا يغيّره أسفنا ولا نحيبنا.. لم أردّ عليه بشيء، ظللت أبكي بحرقة، وحين يئس من استجابتي، دخل الكوخ الذي نجا من الحريق، لأنّه منفصل عن البيت الكبير، وأخذ حاجيّاته، ثم خاطبني بكلمات الوداع المألوفة، وانصرف..

قرّرت أن أبقى هنا إلى حين، لم أقوَ على مغادرة المكان. عزمت على أن ألزم مكاني وأتدبّر أموري بما هو متاح، فلم يعد يهمّني شيء في هذا العالم.. عكفت على نفسي أعزّيها، وأوهمها أنّها يمكن أن تحتفظ بالزهراء حيّة، كما فعلت مع إبراهيم، وأن ألزم الكوخ حتى يتبيّن لي ما يمكن فعله..

انطفأت النيران تدريجيًّا بعد أن سحقت كلّ شيء، لم توفّر أحدًا أو شيئًا، خلّفت وراءها دخانًا واهنًا، ما فتئ يختنق

Twitter: @ketab_n

تدريجيًّا، حتى أصبح مجرّد خيوط تتسرّب من هنا ومن هناك..

حين عاد لنفسي بعض الهدوء، قرّرت أن أقيم قبورًا رمزيّة للموتى، الذين امتدّت لهم اليد الباطشة التي لا ترحم.. بعد جهد جهيد، انتهيت من ذلك، وميّزت قبر الزهراء بعلامات مميّزة، وجلست على رأسه وبدأت أنشج ببكاء مرير.. بغتة وأمام استغرابي طفرت الزهراء أمام بصري يجلّلها البهاء، مرتدية البياض كانت، وتضع على رأسها إكليلاً من الورود، فوقفتْ على بعد خطوات منّي، ثم قالت:

ـ لا تحزن يا أبا يعزى، فأنا لم أمت، وسأظلّ معك إلى أبد الآبدين. وسنرعاك أنا وإبراهيم رعاية مستمرّة دائمة.. فلتهنأ قلبًا، ولتطمئن نفسًا.

حملقتُ فيها بعينين منبهرتين حائرتين، فإذا بها تختفي من أمام بصري، ويحلّ محلّها إبراهيم الذي أنبأني أنّ شخصًا قادمًا إليّ، ونبّهني إلى وصيّته القديمة بأن أبتعد عن شِباك السياسة، حتى لا تلتفّ حبالها حول عنقي، فتذهب بروحي الطاهرة، وتلوّثها بقذارتها.

وعدته أنّني سأفعل، وما كدت أنهي معه حديثي، حتى سمعت وقع حوافر تأتيني من ناحية معيّنة، رفعت بصري فإذا بكوكبة من الفرسان تتوجّه نحوي. حين دنت منّي توقّفت، ثم طفق أفرادها يترجّلون من على صهوات الخيل، ثم كشفوا وجوههم فإذا بمولاي عليّ أحدهم، ارتمى على صدري وأخذ يبكي متأثّرًا بما حدث. لم أنطق ببنت شفة، فقط كنت مأخوذًا

Twitter: @ketab_n

بالأحداث السريعة التي تطوّق حياتي فجأة، أنا العبد الضعيف الذي لا أملك لنفسي حيلة. شكرني مولاي عليّ على وفائي وعلى القبور التي أقمتها، ووعدني بأنّ دماءهم لن تذهب عبثًا، وبأنّه سينتقم لهم ولجميع الشهداء.

في نفسي قلت: «الدماء تنادي الدماء»، ثم صمتت.

ما لبث مولاي عليّ أن قال مخاطبًا إيّاي:

ـ «مكانك معنا يا أبا يعزى، لن نجد من هو أشدّ إخلاصًا منك».

حينذاك، تأكّدت بأنّه لا يفهم شيئًا وأبدًا لن يفهم. ظللت محافظًا على صمتي، ففطن إلى أنّني لا أرغب في ذلك.. ودّعني وانضمّ إلى مجموعته، وانطلقوا جميعًا نحو وجهة لا علم لي بها، وهو يقول:

ـ لن ننساك أبدًا يا أبا يعزى الهسكوري.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قضيت تلك الليلة وليالي بعدها بلا حصر في الكوخ، الذي أصبح وحيدًا في ذلك المكان، بعد أن أتت النار على كلّ ما سواه، فأضحت أثرًا بعد عين.. كنت أقضي أكثر وقتي في الحديث مع صديقي إبراهيم الذي أصبح ملازمًا لي ولا يفارقني أبدًا، خاصّة حين أكون وحيدًا، وكأنّ حضور البشر كان يضايقه، فلا يظهر إلّا لمامًا، حين يأتي نتحدّث في أمور شتّى، وأتلقّى على يده العلوم التي تتوق نفسي إليها، يخبرني عن مجاهدة النفس والزهد في الدنيا ومفاتنها، والتمسّك بالحبّ الخالص، لقد كان يحضّني على التوغُّل في ذاتي كي أصل إلى درجة اليقين.

في النهار، كنت أتدثّر بحصير تبقّى لي من حياة الرعي، فكنت أحيط نفسي به، وأسيح في الخلاء باحثًا عن الأعشاب التي لم أعد أجمعها من أجل الدواء وعلاج المرضى، بل أصبحت أقتات عليها تدريجيًّا، فغدت طعامي المفضّل الوحيد، حتى إنّني

Twitter: @ketab_n

رددت على شخص حين قدّم لي طعامًا غيرها، فقلت له: «ما أصنع بأكل الطعام ونبات الأرض يغنيني»! استمرّيت على هذه الحال لا يشغلني من دنيا الناس شاغل، لا أكاد ألتقي بالناس إلّا نادرًا، لكنّني كنت أعرف أنّهم يتجسّسون عليّ ويتتبّعون أخباري من بُعد.. في لحظات بعينها كانت الزهراء تزورني، وتقضي معي بعض اللحظات، تحدّثني فيها عن بعض الأمور ثم ما تلبث أن تغادر المكان، بعد أن تملأ نفسي بحضورها المختلف.

خلال تجوالي في البراري الشاسعة، بدأت أشعر بوخز الشمس يزعجني، فعمدت إلى كومة من الخوص وصنعت منها شاشيّة تشبه القلنسوة، وضعتها على رأسي، كنت أعرف أنّ هذه الشاشيّة ستزيد مظهري غرابة، وستحفّز الناس على السخرية من مظهري، لكنّني لم أكن أهتمّ بذلك، فقط كنت مشغولاً بأشياء أخرى بعيدة كلّ البعد عن الانشغال بإعجاب الناس أو كرههم، لقد كانت نفسي تنقطع تدريجيًّا عن العالم المادّي الملموس، وتتعلّق بالسموّ، بالعالم الذي لا يقدّم نفسه للجميع، بل ينتقي أصفياءه، عالم الروح، عالم اليقين..

تدريجيًّا، أصبحتُ لا أفارق الأراضي المعشبة المتمدّدة إلى ما لانهاية، حتى إنّ وحيشها ألِف حضوري ولم يعد ينفر من وجودي.. كانت الطيور تحلّق بالقرب منّي وتحطّ على بعد خطوات غير خائفة ولا مضطربة، لقد شعرتُ بأنّني لن أمسّها بسوء، فما لبثت أن تكاثرت من حولي، وقلّدها في ذلك الكثير من المخلوقات، لكنّ الناس بعد حين بالغوا في الحديث في

Twitter: @ketab_n

الأمر، حتى إنّهم ادّعوا أنّ سباع الأرض وضواريها كانت تزورني وتقضي لياليها في كوخي البائس، كانوا يقولون ذلك دون أن يرفّ لهم جفن، وقد وصلني كلامهم بصيغ مختلفة من طرف أناس مختلفين، وكانوا في ذلك الوقت قد أطلقوا عليّ اسم «بو جرتيل» ـ يقصدون صاحب الحصير، الذي لم يعد يفارقني أبدًا ليلاً ونهارًا صباحًا ومساءً، وفي كلّ الأماكن والأزمنة..

بعد فترة محدّدة، أصبح كوخي محجًّا للكثير من الناس الحائرين والمرضى والمهمومين، يبحثون عندي عمّا يخفّف من آلامهم وأحزانهم، كانوا يدّعون لي قدرة لا ألمسها أنا في نفسي. ادّعوا أنّني قادر على شفاء المريض من مرضه، ومداواة الحزين من حزنه، وتخليص الشقيّ من شقائه.. فقط كنت أبتسم ولا أردّ حين أرى الإلحاح في عيون الناس وعلى ألسنتهم، وأدعو الله في قلبي أن يستجيب لدعاء كلّ مريض، وأن يسعد كلّ ذي همّ وشقاء.. كانت البلد حينذاك تمور بالاضطرابات والفتن، وقد عاث قطّاع الطرق واللصوص في الأرض فسادًا، فكثرت العاهات وانتشر الجياع في الطرقات، فلم يجد الناس غير «بو جرتيل» مواسيًا لهم، فولّوا وجوههم شطر كوخه البائس.. تحمّلتُ الأمر بداية، لكنّني سرعان ما افتقدت الهدوء الذي نعمت به طويلاً، بعد أن كثر اللغط من حولي، حتى أصاب روحي بعض القلق، ولم أعد قادرًا على الترقّي درجات في سلّم المجاهدة، وكادت نفسي تُفتتن بهذه الأجواء، فيتملّكها الكِبَر، فتهوي منكبّة على وجهها إلى أسفل سافلين..

Twitter: @ketab_n

ليلاً، استشرت خليلي وقرين روحي إبراهيم في الأمر، وتداولنا فيه بكثير من الدقّة والحرص، فوصل بنا الحديث إلى ضرورة ترك المكان ليلاً دون أن يفطن بي أحد، وأولي وجهي قُبل مدينة مراكش، فهناك ظهر كثير من العلماء والفقهاء الذين يمكنني أن أتعلّم على أيديهم المزيد.

لم أتوانَ لحظة في تنفيذ ما وصلنا إليه من قرار، إذ سرعان ما تلحّفت بحصيري واعتمرت شاشيّتي، ومضيت في جنح الليل أتلمّس طريقي بين الأحراش والأعشاب والحجارة المكوّمة في كلّ مكان..

حرصت على أن أقطع شوطًا كبيرًا من الطريق قبل بزوغ ضوء النهار، فاجتهدت في المسير، يساعدني في ذلك طول رجليَّ، اللتين تخطوان خطوات واسعة، وكأنّني مارد من جان.. نحول جسمي وخفّته، وعدم إثقال نفسي بأيّ متاع أحمله، سوى جرابي البائس، توغّلت في المسير، وقطعت مسافة كبيرة تبعدني عن الكوخ، الذي خلّفته ورائي، غير آسف سوى على ذكريات كانت لي هناك، فالمكان بسطوته كان يحفّزني على استعادة تلك الذكريات في كلّ وقت وآن.. حزنت بالخصوص على قبر الزهراء، الذي عرفت أنّني سأشتاق إليه كثيرًا، وربّما لن أظفر برؤيته لاحقًا، لكنّني سرعان ما حسمت أمري، وقلت في نفسي «لم أحتج إلى قبر، وأنا أحملها في نفسي!».

انتشر الضوء تدريجيًّا، وتأكّد لي أمر ابتعادي عن المكان بمسافة معقولة.. فالنباتات غير النباتات، ووجه الأرض اختلف،

Twitter: @ketab_n

الجبال أضحت في البعيد، بل موغلة في البعد، والأرض استدار شكلها حتى أضحت تشبه امرأة تخلّصت من ملابسها، واستلقت مسترخية على ظهرها بعيدة عن أعين المتلصّصين.. وأضحى النسيم غير النسيم، شعرت بجفاف الجوّ وقوّته. لقد افتقدت بسرعة تلك البرودة، التي تتسرّب من أعماق الجبل وتنعش الأجساد نهارًا، حين تشتعل شمس النهار وتتوهّج، وتحرق الأجساد بحرارتها المفرطة.

كان عليّ أن لا أتوقّف أبدًا، وإلّا تأخّرت، حتى تشتدّ الحرارة فتلهب جسدي وتفقدني قوّتي! لكنّ المصيبة تأتيني دومًا من حيث لا أحتسب، فلم يكد يصبح للدنيا عيونها المبحلقة، بعد أن انتشر ضوء النهار، حتى تأكّدت مأساتي واستفحلت. لقد لاحظ الناس ظهوري المفاجئ والمريب لهم، فافتتنوا بذلك أيّما افتتان، وأخذوا يدنون منّي ويتمسّحون بحصيري، ويردّدون الدعاء تلو الدعاء. أصابني ذلك بالحيرة وضيقٍ في النفس وحسرة لا تنجلي، فقد هربت من الرمضاء لأسقط في السعير، داخلني الكثير من الخوف من أن يستمرّ هذا الوضع، فتشعر نفسي بأهمّيّتها ويداخلها الغرور.. لكنّ الأطفال بحكمتهم حسموا الأمر بما لا يمكن أن يتوقّعه أحد، فلقد وصلتني بسرعة البرق، أوّل حجارة، مصاحبة بعبارة «ها هو بوجرتيل». لم تؤلمني الحجارة، التي توالت على جسدي، ولم تجرحني عبارات السخرية والتشفّي، وإنّما نزلت على نفسي بردًا وسلامًا، فهرولت في مسيري، محاولاً تجاوز هذه القرية في أقلّ وقت ممكن، وأنا أحمد الله أنّني تخلّصت من شرّ مستطير كاد يحيق بنفسي ويهلكها. أعجبني

Twitter: @ketab_n

تصرّف الأطفال، وإن آلمني بعضه في أعضاء من جسدي، لكنّه أراح نفسي وسما بروحي إلى السماوات العلا.. لقد أحسن الأطفال بما فعلوا!

تكرّر هذا الأمر مرّات عدّة، فأينما حللت أجد صيتي قد سبقني، يتعامل معه الناس كلّ بحسب حاجته ومصلحته، فمنهم من يرحّب بي ويبجّل ظهوري، ويعرض عليّ الإقامة عنده، واعدًا إيّاي بالرعاية والمكانة المثلى، ومنهم من يستطير الشرّ في عينيه، ويتّهمني بالتجديف والشعوذة والكفر أحيانًا.. لكنّ الأطفال في جميع الأحوال كانوا حاسمين، ليس عندهم غير الحجارة لغة يقذفونني بها قذفًا، لا يستكينون ولا يرحمون، وهم بحقّ بارعون في الألقاب والصفات التي يطلقونها عليّ، جاعلين منّي لعبتهم وتسليتهم، التي ربّما أنقذتهم من الملل والرتابة! كنت في كلّ مرحلة من مراحل الطريق أعوّد نفسي على وضعي الجديد، لم أكن أردّ بشيء على كلام الناس وتساؤلاتهم، ولا أدفع عن نفسي ضررًا أو حجرًا، فقط كنت أمضي في طريقي، غير ملتفت لما يحدث من حولي. اضطرّني طول المسافة إلى قضاء الليل مرارًا في الخلاء. كنت ألجأ إلى شجرة من الأشجار وأتكوّر على نفسي وأنام. وفي مرّات قليلة، التجأت إلى بعض المساجد الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، فكنت أنزوي في ركن من أركانها، وأنام حتى ينال الجسد قسطًا من الراحة، ثم أستأنف المسير.

ما إن لاحت لي بنايات مدينة مراكش من بعيد، وهلَّ سمتها المختلف، حتى تأكّدت أنّ خبري قد وصل، وأنّ هناك من ينتظر

Twitter: @ketab_n

مجيئي بقليل من الترحيب والكثير من سوء الظنّ! لقد توجّس الحكّام خيفة من حضوري إلى عاصمة الملك دون تهيّب أو تردّد، استقبلني فرسان أشدّاء عند مشارف المدينة. نهروني بكلمات قاسية لا أستحقّها، ثم قادوا خطواتي نحو مسجد من المساجد، ففتحوا صومعته وأدخلوني هناك وأغلقوا الأبواب دوني. لقد فهمت أنّهم يكرهون أن يلتقي الناس بي، وكأنّني صاحب دعوة أو طالب ملك، بينما أنا لست سوى عبد فقير، لا يشبع نفسه غير ملكوت الله الواسع، الذي لن تقنع بدونه ملكًا. أهملوني هناك لفترة، حتى تدبّروا أمرهم. كان الباب يُفتح في فترات متباعدة، ثم يُقدّم لي الطعام ويُغلق الباب. لم أكن أمدّ يدي إلى الطعام، لأنّني كنت منشغلاً بأشياء أخرى لا تخطر على بال! وحين أشعر بوهن يكتسح الجسد، أمدّ يدي إلى جرابي وأستخرج بعض الأعشاب وألوكها، فتمنحني الكثير من الطاقة، والقدرة على الاستمرار.

بعد أيّام، جاءني الحرّاس، قادوني نحو وجهة لا أعلمها، فإذا بي في مكان يبدو أنّه أحد الدواوين أو ما يشبه ذلك، ممّا حدّثني عنه إبراهيم. وجدت نفسي أمام شيخ وقور، تزيّن وجهه لحية بيضاء، وفي عينيه يلمع بريق من ذكاء..

رحّب بي، وطلب من الحرّاس أن يتركانا بمفردنا، ثم سألني بلسان عربي فصيح، بكلمات فهمت منها التوحيد والله والجماعة والنبيّ عليه صلوات الله، ففطنت أنّه يطرح عليّ سؤالاً محدّدًا يريد منّي الإجابة عنه. سكتُّ قليلاً، ثم خاطبته بلساني الأمازيغي

Twitter: @ketab_n

الذي لا أتقن غيره، بأنّني لا أفهم شيئًا ممّا يقول.

دعا الشيخ أحد الجنود، فسأله عن معنى ما أقول، فتأكّد بأنّني لا أحسن الحديث باللغة العربيّة، فابتسم الرجل وقد ظهرت على ملامح وجهه علامات النصر. في تلك الأثناء، ظهر إبراهيم إلى جانبي، وخاطبني قائلاً:

ـ لا تخشَ شيئًا، فهم فقط خائفون، ولن يمسّوك بسوء، فقط قل للشيخ الذي أمامك إنّك لم تقطع البحر من أجل هذا، فالله قيّدك لأمر أهمّ.

أخبرت الحارس بما قاله إبراهيم، دون أن أفقه منه شيئًا، لكن ما إن نطقه الجنديّ بلساننا حتى بهت الرجل واصفرّ وجهه وشحبت شفتاه، قام من مكانه وارتمي على يدي يقبّلها، ثم نزع برنسه الأسود وغطّاني به، ثم رطن باللسان العربي، ففسّره الجنديّ لي فقال: «اذهب فأنت وليّ من أولياء الله، سبحانه يضع سرّه في أضعف خلقه».

فعل الجندي مثل ما فعل الشيخ، وأفرجوا عنّي، تركوني أمضي إلى حال سبيلي، فلم يعترض منذ ذلك اليوم أحد طريقي، بل لمست بعض الترحيب، لكن بعد مدّة من التجوال في مراكش، جاءني جندي وخاطبني قائلاً:

ـ من الأفضل أن تغادر البلد، فقد تمتدّ لك يد الغدر في أيّ وقت وآن.

لمست صدق الرجل، فعزمت على الرحيل، لكنّني قبل أن

Twitter: @ketab_n

أفعل، سألت عن حقيقة الشيخ لأعرف كيف أبهره ما جاء عن لساني من كلام، بعد أن بثّه في عقلي خليلي إبراهيم، فأجاب:

ـ إنّه قاض، جاء من بلاد الأندلس، وله مكانة في دولة المرابطين.

عرفت معنى الكلام الذي قلته له. لقد بدا واضحًا وضوح الشمس في عليائها، لكنّني لم أتوقّف عنده كثيرًا، فمضيت في طريقي، أستفتي روحي عن السبيل الذي يجب عليّ أن أخوض فيه بعد كلّ هذا الذي حدث، لكنّي قبل أن أتّخذ قراري، فضّلت أن أغادر أسوار المدينة، فلقد ضاقت نفسي بها، لم أجد بين جدرانها ما يستحقّ البقاء. هنا الكثير من اللغط الكلام، وكمّ هائل من الحقد والدسائس والأحزان. في هذا المكان، ما تلبث الروح أن تتعب ويحيط به المرض من كلّ جانب، ولن تقوى على المقاومة والتحمّل زمنًا طويلاً..

غادرت مراكش بخطوات، أوهنها ما رأته في كنف هذه الحاضرة من أحزان، والتجأت إلى ظلّ وارف من أشجار أثقلتها الثمار، من دون أن تمتدّ يدي إليها، فما كان من إبراهيم سوى أن يظهر من جديد، وحين سألته عن وجهتي، قال «من لا شيخ له فالشيطان شيخه». استفسرته عن معنى كلامه، لكنّه أبى أن يشرحه أو يفسّر معناه، غير أنّه ظلّ يردّده كلازمة لا يبغي عنها عوجًا.. حارت نفسي في ذلك، وتمنّيت لو أنّه جاد بالمزيد حتى يتبيّن لي المراد، غير أنّي ما لبثت أن رحت في غفوة مباغتة، فإذا بي أجد نفسي في أحضان عالم الأحلام، الذي غالبًا ما يكون أكثر صدقًا

Twitter: @ketab_n

وبلاغة من عالم اليقظة، المحاط بكثير من المتاريس العصيّة على التجاوز. رأيت نفسي أهيم في أرض خلاء.. وفي المدى، هناك في البعيد يلوح لي نهر بلا بداية ولا نهاية، يصبّ في فم وحش خرافيّ لا حدود لحجمه الكبير.. استيقظت مرعوبًا، لكنّ الرسالة كانت واضحة، فولّيت وجهي قبل منطقة دكالة، وبالضبط صوب حاضرة يتحدّث عنها الكثير ممّن ساحت أقدامه في الأرض، وهي معروفة بسمك «الشابل» بعلمائها الأجلّاء، فقرّرت أن أذهب إلى هناك.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تركت ورائي مراكش تتمرّغ في حيرتها المزمنة، خلّفت هناك حصيري الذي لازمني طويلاً حتى أصبحت لا أُعرف إلّا به، بسببه سمّاني الناس «بو جرتيل»، وسخروا منّي بترديده، بيد أنّي منذ أن حصلت على البرنس الأسود الذي منحني إيّاه القاضي الأندلسي، اكتفيت به، فهو يبدو لي مناسبًا جدًّا ولا يثير الانتباه، كما كان يفعل حصيري البائس.. مضيت في طريقي لا ألوي على شيء، سوى أن أصل في أقلّ وقت ممكن إلى وجهتي المرتجاة، حاضرة أزمور المستقرّة على الضفّة الجنوبيّة لنهر أمّ الربيع. لقد هفت نفسي إلى شيخي الذي سألازمه مدّة طويلة، وسأتعلّم منه الكثير. لقد عرفت قبل أن أقصده بعض أخباره، فصيته انتشر في البلد، والجميع يتحدّث عن علمه وورعه.. إبراهيم، خليلي، حدّثني عنه بكثير من الحماسة، قال عنه إنّه بدأ حياته معلّمًا للصبيان، وكان في عمله هذا لا يقتعد الأرض أبدًا، إنّما يظلّ

Twitter: @ketab_n

واقفًا متّكئًا على عصاه، فلا تغفل عينه أبدًا عن المتعلّمين، فيكون كسبهم أكثر، لذا قصده الناس من نواحي دكالة ومن غيرها طلبًا للعلم، فوجدوا بغيتهم لديه.

الطريق إلى حاضرة أزمور منبسطة، لا مرتفعات فيها سوى تلال صغيرة أخطأت طريقها نحو المكان، كنت أمضي فيها بسرعة لافتة، وحين ينال التعب منّي، ألجأ إلى مكان آمن وأنال كفايتي من الراحة، ثم أستأنف المسير؛ حين يكثر ضجيج الأمعاء ويزيد عن حدّه، ألجأ إلى النباتات، أتناول منها ما يسكت عصافير بطني، وقد فتنتني بالخصوص نبتة يطلق عليها الأهالي «ونلكوط»، كنت أُقبل عليها بكثير من الإصرار، وأبحث عنها في الأماكن التي أتوقّع وجودها.. تكرّر ذلك مرارًا، حتى فطن الناس إلى فعلتي، فجادوا عليّ بلقب جديد هو «بو ونلكوط»، لم أهتمّ بذلك كثيرًا، فقد تعوّدت فضول الناس وانشغالهم بما لا يعنيهم، كما أنّهم مفتونون بالتنابذ بالألقاب..

في الطريق، تكرّرت مأساتي مع الناس، فلقد نسبوا لي قدرات خارقة، وزعموا كسابقيهم، الذين مررت عليهم في طريقي نحو مراكش، بأنّني قادر على شفاء المرضى وإعطاء الصبيان للعاقر، وغير ذلك من الأوهام.. حتى إنّهم تفنّنوا في خلق الحكايات عن احتجازي في مراكش، فزعموا أنّ الحكّام سجنونني ظلمًا، لكنّني استطعت المرور عبر القضبان، فخرّ الحرّاس ساجدين، ومنهم من فرّ هائمًا على وجهه، لا يعرف لنفسه مستقرًّا.. حين كنت أسمع هذا الكلام، لم تتملّكني أيّ

Twitter: @ketab_n

رغبة في الجدال، كنت أعرف أنّ الناس غريبو الأطوار، وأنّهم لن يصدّقوا أبدًا أنّني مجرّد عبد تافه لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا، فهم لن يصدّقوا إلّا ما زيّنت لهم أنفسهم، وهم في حاجة إلى تصديقه..

كان الأطفال دومًا لي بالمرصاد، فما إن تغفل عنّي عيون الكبار، الباحثون عن منفعة مفترضة في شخصي الضعيف، حتى ينبثقوا لي كالعفاريت من حيث لا أدري، فيتمسّكوا ببرنسي، ويسخروا من شاشيّتي / قلنسوتي، ويتفنّنوا في شتمي بأحطّ النعوت والأوصاف.. تحمّلت ذلك بكثير من الصبر والابتسام، حتى ملّوا منّي وتركوني لحالي بعد حين.

تكرّر هذا الوضع في كلّ قبيلة أو قرية أحطّ بها الرحال، حتى كدت أيأس من أمر هؤلاء الناس، الذين لا يتعلّمون أبدًا، وإنّما هم مصرّون على تكرار أخطائهم بكثير من البلاهة، التي لا يتحرّجون من رميي بها ظلمًا وبهتانًا.

حملت معي اسمي الجديد، الذي التصق بي كعاهة جديدة، يتوجّب عليّ تحمّلها إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. التهمت قدماي الجائعتان المزيد من الطريق، وبعد أيّام، أحسست بتغيّر النسيم من حولي، لقد أضحى أكثر برودة، تتخلّله رطوبة تعلن عن نفسها صباحًا بضباب كثيف، وفي الزوال بنوع من الدسم الذي يلتصق بجسدي، لقد تعوّدت أن يتبخّر عرقي مباشرة بعد خروجه من مسام جسدي، لكنّه اللحظة يلتصق بي فتصدر عنه روائح غير مستحبّة. عرفت بحدسي أنّني أدنو من البحر، الذي أعرف أنّه

Twitter: @ketab_n

يتمدّد على مسافة قريبة من هنا. استمرّيت في المسير، حتى لاح لي النهر الكبير، فعرفت أنّني لو مشيت محاذيًا له، سأصل وجهتي في وقت قريب. كانت أنواع من النبات شديدة الخضرة تتكاثف بضاحية النهر، أكثرها القصب الذي يتمدّد إلى أعلى طويلاً كثيفًا.. استمرّيت أمشي محاذيًا له، حتى لاح لي السور الضخم لمدينة أزمور. تهيّبت من الأمر للحظة، ثم ما لبثت أن حسمت أمري وتوجّهت نحو المدينة. كان عليّ أن أعدّ نفسي للّقاء. وهكذا، ما إن أشرفت على المدينة حتى اخترت لي مكانًا مناسبًا، وجلست هناك أرتّب نفسي وأعدّها لمرحلة جديدة في حياتي، لقد عاهدت نفسي على إقامة طويلة في هذه الحاضرة، في رفقة شيخي أبي شعيب، أغترف من معينه الذي لا ينضب، ولن أغادره حتى يسمح لي بذلك، بعد أن يجيزني ويرضى عنّي.

أعددت عدّتي للإقامة لبعض الوقت في المكان في حاشية المدينة، كي أهيّئ نفسي لدخول وشيك، بعد أن أمنحها الفرصة للاستئناس بها من بعيد، ففاجأني طفل، يقف على رأسي، ويقول بكلام قليل وحاسم:

ـ إنّه في انتظارك.

مستغربًا، سألته:

ـ من؟

فلم يردّ عليّ بشيء، وإنّما قال:

ـ اتبعني.

Twitter: @ketab_n

فتبعته بعد أن حملت جرابي، ووضعت البرنس على كتفي. اقتفيت خطوات الطفل، لا أشيح عنه نظري، مررت بأحراش لم أتوقّعها بمثل تلك الكثافة على مشارف المدينة، ثم ما لبثنا أن تجاوزنا الجدران، فوجدنا في استقبالنا كثير من الخلق، يتطلّعون إليّ بكثير من البلاهة والاستغراب. ومرّة أخرى، اكتشفت أنّ اسمي قد سبقني، وأنّ الناس يستعملونه بطرق مختلفة، وأنّ السخرية ستلازمني ما حييت.. حين وصلنا إلى المسجد، دخلناه بسرعة تجنّبًا للأعين المترصّدة. انبهرت بالزينة التي يتوافر عليها المسجد، فقلت في نفسي «هل يحتاج الإيمان إلى كلّ هذه الزخرفة»! لكنّني سرعان ما تناسيت الأمر، منشغلاً بما يستحقّ منّي ذلك.. قاد الطفل خطواتي داخل المسجد، وطلب منّي أن أجلس في ركن من أركانه، وحين سألته عنه، أشار بيد واثقة نحو رجل يقف في وضع الصلاة في إحدى زوايا المسجد. أخذت مكاني دون كثير من الكلام، وطفقت أنتظر شيخي حتى ينتهي من صلاته، لكنّه لم ينته، فعرفت من توّي سرّ تسمية العامّة له بـ «السارية»، فهو يطيل الوقوف في صلاته وكأنّه سارية مسجد تأبى الانحناء.. داهمتني بغتة غفوة، فسرقني النوم إلى العالم الموازي، الذي ما فتئ يعبّر عن نفسه بطرق مخاتلة، وكأنّه يأبى إلّا أن يرافق كلّ محطّات حياتي بالتدخّل، حينًا بشكل مباشر وصريح، وأحيانًا أخرى بأشكال مواربة وغامضة.. رأيت نفسي في جوقة كبيرة من الخلق يترصّدونني، في كلّ خطوة أخطوها، وهم يكيلون لي كثيرًا من الشتم، غير أنّي لم أكن معنيًّا بذلك، لذا شققت طريقي وسطهم، فإذا بي أجد نفسي وسط بحر متلاطم

Twitter: @ketab_n

الأمواج، وإذا البحر يهدأ.. ثم ما فتئتُ أن عبرته وأنا أمشي على صفحته، دون أن تغوص قدماي فيها أو تبتلّ.. انتبهت إلى أنّني كنت أحمل في يدي قصبة إبراهيم وأعزف عليها، وكلّما ازداد عزفي حدّة ازداد البحر هدوءًا، وكأنّ العزف يخدّره.. بعد فترة من غفوتي، أحسست بيد تحرّكني، فانتفضت فَزِعًا من نومي، فإذا بي وجهًا لوجه مع شيخي أبي شعيب. اعتذرت منه على سوء أدبي، وأنّني لم أنتظره وأنا في كامل يقظتي، فابتسم لي، وقال ملتمسًا لي الأعذار:

ـ لقد قطعت إلينا طريقًا طويلاً وعرًا وشاقًّا، وأنت لا تتوافر على بهيمة تعينك على تحمّل مشقّة السفر.

صمتُّ في حضرته، واكتفيت بالنظر إلى الوجه السمح، الذي زادته لحيته المشذّبة وقارًا وحُسْنًا، سألني في كثير من اللطف:

ـ كيف تركت مراكش؟

أجبته:

ـ حالها من حال العباد.

انتظر منّي المزيد، فلم أنطق بشيء، فخاطبني مغيّرًا الحديث، أو متوغّلاً فيه بشكل مختلف:

ـ لقد سمعت عن كراماتك وكيف أنّك تخلّصت من السجن بطريقة مدهشة، يحكي عنها العامّة بكثير من التعجّب والذهول!

رددت عليه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

ـ الناس يصدّقون ما يجد هوى في نفوسهم.

علم شيخي أنّني لا أرغب في الحديث في هذا الأمر، فتطرّق إلى الموضوع الذي يهمّنا أكثر، قائلاً:

ـ ما حاجتك عندنا يا أبا يعزى؟

رددت عليه:

ـ التزوّد بما أنعم الله عليكم به من علم.

حزينًا، ردّ عليّ:

ـ وما فائدة ذلك في هذا الزمان الذي لا يقدَّر أهل العلم حقّ قدرهم، وكلّ التقدير يحوزه أهل السلطان.

عرفت أنّه يعاني من شيء محدّد، لكنّني لم أرغب في مجادلته.. لقد وصلني أنّه يقاسي الأمرّين من والي المرابطين على حاضرة أزمور، يضيّق عليه، يتدخّل في شؤونه، يشي به عند أولي الأمر في مراكش، متّهمًا إياه بمناصرة المناوئين لحكمهم دون حجّة أو بيّنة.. لقد حدّثني إبراهيم عن بعض من ذلك عرضًا، حين تطرّق الحديث يومًا إلى معاملة أهل الحلّ والعقد من المرابطين للعلماء والفقهاء وأهل الرشاد، فأوضح لي بالبرهان بأنّهم رغم ادّعائهم التمسّك بالملّة، كما تجلّت في منابعها الأولى عند خير الخلق أجمعين، وورثته الخلفاء الراشدين ومن تبعهم بإحسان من التابعين، غير أنّهم ـ في حقيقة الأمر ـ غير مخلصين ولا صادقين في دعواهم، فكلّ من ابتعد عن طريقهم لم يناصر دعوتهم، لاقى منهم الكثير من الضنك والعنت.. وأعطى أمثلة

Twitter: @ketab_n

على ذلك بعلماء أولياء الله صالحين، من قبيل أبي شعيب أيّوب السارية، وأبي عبد الله أمغار.

حدّثني شيخي أبو شعيب بكثير من الحيطة عمّا حدث له في وقت قريب، فلقد عمد الوالي إلى القدوم بشخصه إلى المسجد، وطلب منه أن يغلقه في غير أوقات الصلاة، أو لا يتواجد به في تلك الأوقات الفاصلة ما بين فريضة وأخرى. لقد جاء محاطًا بجند أشدّاء وكأنّهم سيحاربون مجرمين عتاة أو قطّاع طرق، يسلبون الناس متاعهم ويعتدون على أعراضهم. ثم أضاف قائلاً: «وقفت في طريقه، وواجهته بآيات من القرآن الكريم وأحاديث للنبي الأمين، لكنّ العزّة أخذته بالكبر، فأبى إلّا أن ينفّذ ما كان عليه عازمًا، فلم ينفعني معه سوى الاستشهاد بأقوال الأمير عليّ بن يوسف، ما تواتر عنه من حديث خصّ به الثغور وبلاد الأندلس بعد أن قضى على الفتن، وحارب فيها النصارى وأعاد لها استقرارها، فما كان منه إلّا أن عاد متقهقرًا خائبًا، يجرّ أذيال الهزيمة، لكنّني أعرف أنّ هذا الحال لن يدوم، وأنّه سرعان ما يُعيد الكرّة من جديد.

توقّف عن الحديث للحظات، ثم قال:

ـ واعلم أنّ حضورك هنا لن يمرّ بسلام، فلا بدّ أنّه سيبعث زبانيّته ليفسدوا علينا صفاءنا وعزلتنا.

تدخّلت حينذاك، وأخبرته بأنّني أستطيع أن أغادر المكان إن كان في ذلك ما ينغّص عليه حياته.

ردّ عليّ معاتبًا:

Twitter: @ketab_n

ـ أنت ضيفي يا أبا يعزى، وإن كان لا بدّ أن تغادر، فسوف أغادر معك المكان، فلا إقامة لي في بلد لا أستطيع أن أستقبل فيه ضيوفي.

بسرعة تناسينا الأمر، وخضنا في أمور تخصّ العقيدة، توقّفنا كثيرًا عند المعرفة الربّانيّة التي يُلقي بها الله في الوجدان، أنّ الله قادر على أن يفتح بصيرة العبد ويجعله ينال المعرفة الحقّة، خاصّة إذا ما قطع المرء شوطًا كبيرًا في مجاهدة النفس بالتقوى، وتجنّب المغريات، واقتنع من العيش بما يقيم الأود، غير متنازل عن ذلك قيد أنملة.

شطّ بنا الحديث في أمور شتّى، حتى جمعت الألفة بين قلوبنا في وقت وجيز، وشعرت بحقّ أنّني ظفرت ببغيتي، وأنّني نلت بلقاء شيخي ما تهفو النفس إليه.

ليلاً، حين تعيّن على شيخي أبي شعيب أن يغادر إلى بيته الذي لا يبعد كثيرًا عن المسجد، طلب منّي أن أرافقه، فرفضت بلطف، وأخبرته بأنّني أفضّل أن أبقى هنا في المسجد حتى أتدبّر أمري، وأنّني سأكون له ممتنًّا إذا لم يلحّ في ذلك. لم يحاججني كثيرًا في الأمر، خاصّة أنّني أعرف أنّه قد حظي في المدّة الأخيرة بعروس، تحتاج أن يختلي بها وتختلي به، فآخر ما يحتاجه العروسان طرفًا ثالثًا يفسد عليهما خلوتهما.

قضيت ليلتي في رحاب بيت الله بعيدًا عن تقلّبات الجوّ، التي نغّصت عليّ الاستغراق في النوم سابقًا.. هنا ارتميت كرجل ميت، فلم أشعر بنفسي حتى التحق الناس بالمسجد فجرًا،

Twitter: @ketab_n

وضمنهم شيخي أبو شعيب. أدّيت معهم الصلاة، ثم تسلّلت خارجًا، لأهيم على وجهي في أرض الله الواسعة، لقد اشتقت إلى حديث مستفيض مع الحبيبين: إبراهيم والزهراء، فما كان من إبراهيم إلّا أن أعلن عن ظهوره، بعد أن توغّلتُ في الخلاء.. حضر معافى وقويًّا، وله شهيّة كبرى للحديث. تداولنا في أمور شتّى، ولم يوفّر حديثنا شيخي أبا شعيب، الذي بدا صديقي إبراهيم مرتاحًا إلى إقامتي بين ظهرانيه، كنت أتحدّث معه بدون تحفّظ، وكان حديثي يرتفع من حين إلى آخر، فيتلقّفه كلّ من صادفته في طريقي، فتأكّدت أنّني سأجد صعوبة في مقامي في حاضرتي أزمور بعد أن يعلم الناس بأنّني أكلّم نفسي في الخلاء، فهم أبدًا لن يفهموا أنّني أحدّث خليل روحي، لكنّني كنت قد عزمت على البقاء مهما يقع، حتى يجيزني شيخي أبو شعيب.

في طريقي، عمدت إلى نبتتي المفضّلة، جمعت منها كمّيّة كبيرة، أخذت أتناول منها القليل نيئًا، على أن أطبخ بعضها فيما بعد، لأقتات ببعضه وأعيل به من تقطّعت بهم السبل من الفقراء وذوي العاهات، بعد أن لاحظت أنّ المدينة تضجّ بكثير منهم، لعلّي بذلك أنال ثوابًا، وأقدّم لهم درسًا بليغًا بأنّ العيش لا يحتاج كلّ هذه المهازل التي يقومون بها عارضين عاهاتهم على الناس، وكأنّها كنزهم الذي لا يتنازلون عنه أبدًا.. والحال، أنّه يكفيهم أن يسيحوا في الأرض يلتقطوا بقولها وأعشابها، فتكفيهم شرّ السؤال والمذلّة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

استغرقني أمر النباتات وقتًا طويلاً، عكفت على طبخها وتقديمها للجوعى، الذين أخذ عددهم يتكاثر يومًا بعد يوم، وأخذت عادة حضورهم في أوقات معيّنة تترسّخ في الأذهان، فلم يعودوا يفوّتون الموعد، وكنت من جانبي أجتهد في تحضير الطعام لهم.. لإنجاز هذه المهمّة، أعددت كانونًا ضخمًا وطنجرة، تصدّق بها عليّ أحد الصنّاع. كنت أملأها من نبات «الخبازى» في الوقت الذي تتكاثر هذه النبتة، وحين تختفي أعوّضها بغيرها، فضفاف النهر كانت دومًا معطاء، ولا تبخل عليّ بنبتة جديدة، تؤدّي المهمّة على أحسن ما يرام، فتكفي لإطعام أفواه الجوعى بأحسن ما يكون.. في فترات متباعدة، كنت أستقبل مرضى من كلّ نوع، وكنت غالبًا ما أستعين بخبرتي في الأعشاب، لأصف لهم وصفة علاجيّة معيّنة، غالبًا ما كانت تفيد المريض، لكن حين تقاطر عليّ المرضى من كلّ جانب، وخاصّة

Twitter: @ketab_n

حين انتشر في البلد وباء غامض، لم يفلح أحد في القضاء عليه، كنت أوصي الجميع بأكل الثوم، وأنا نفسي كنت أتناول منه كمِّيَّة كبيرة حتى أثّرت على رائحة فمي، فأصبح محدّثي يجد صعوبة في تحمّل تلك الرائحة.. هذا الاهتمام بالجوعى والمرضى والمعطوبين، أقام من حولي ضجّة لا تخفت، وسمعة لا أستحقها، حتى إنّ كثير من الناس نسبوا لي قدرات خارقة في علاج الأعمى والأصمّ والأعرج.. كان الناس يتداولون هذه الأمور فيما بينهم، ويصلني بعضها فأبتسم، ثم أستمرّ في حياتي كما لو أنّ شيئًا لم يحدث أبدًا.. في أحيان عدّة، كان قرين روحي إبراهيم يناقش معي هذا الأمر، فيقول لي:

ـ لا تهتمّ بكلّ ذلك، فلن يصدّق الناس أبدًا أن لا كرامات لك، فهم يرغبون في ذلك ليخفّف عليهم ثقل الحياة ومعاناتها، فلا تصدمهم بالحقيقة، فالوهم علاج لكثير من النفوس.

لم يكتف العامّة بذلك، بل نسبوا لي أشياء أخرى لا يصدّقها العقل، لقد ادّعوا أنّني أتحدّث مع الأسود وأتحكّم فيها، وأخضعها لرغباتي، وراج هذا الأمر بعد حادث بسيط وقع في الخلاء. لقد كنت أسعى في أرض الله الواسعة باحثًا عن النباتات النافعة، فإذا بي أرى كلابًا متوحّشة تهاجم بعض الصبيان، فتركت ما في يدي وتوجّهت نحوها، ولأنّ لديّ خبرة سابقة في التعامل مع هذه الحيوانات، استطعت أن أهدّئها. لقد كان يكفي أن أتقدّم نحوها بهدوء وبدون خوف وأنا أحملق في أعينها، لأؤثّر فيها، فما كان إلّا أن بصبصت الكلاب بذيولها وانسحبت هادئة،

Twitter: @ketab_n

وتركت الصبيان في أحوالهم، فانصرفوا إلى بيوتهم حاملين معهم حكاية «بو ونلكوط» الذي أنقذ حياتهم من الكلاب المتوحِّشة! لكن سرعان ما انحرفت الحكاية وأصبحت مغايرة تمامًا لما حدث، حتى إنّ بعضهم زعم أنّ أسودًا اعترضت قافلة من الرجال والنساء، وأنّها كادت تفترس الجميع، غير أنّ ظهوري المفاجئ، جعلهم يتفادون الكارثة، وأنّني أمرت الأسود بالهدوء، بل وطلبت من بعض الرجال ركوبها، لكنّهم ارتعبوا من القيام بذلك.

بالموازاة مع ذلك، استمرّت جلساتي مع شيخي أبي شعيب، الذي أصبح تقديره لي مضاعفًا، خاصّة حين لمس منّي تفانيًا في خدمة الناس، وقد قلت له يومًا:

ـ ما حكاية الناس مع الكرامات يا شيخي؟

فردّ عليّ ممازحًا:

ـ والله لا نعرف أيّنا شيخًا للآخر!

وأضاف قائلاً:

ـ يبدو أنّ ظلّك يخفيني، وقد أصبحت أنا كذلك مريدًا لك، فلا حديث للناس إلّا على كرامات «بو ونكلوط» التي لا تنتهي، لكنّني صراحة سعيد بذلك، فأنت يا أبا يعزى تستحقّ كلّ خير، يبدو أنّ العامّة افتتنت بك.

متفاديًا الحديث عن نفسي، سألته:

ـ هل لهذه الكرامات من أساس في الدين؟

Twitter: @ketab_n

فكّر للحظات، ثم قال:

ـ لم ينكرها العارفون بدين الله، واعتبروها مؤشّرًا يدلّ على المعجزات التي خصّ بها الله الرسل.

فسألته عن طبيعتها، فردّ قائلاً:

ـ هي تكسير للعادة ونقض لها، من قبيل قطع المسافة البعيدة في المدّة القليلة، المشي على الماء، الطيران في الهواء، والحديث مع العجماوات، وعلاج المستعصي من العاهات كالعمى والصمم وما إليهما.

أضفت مستفسرًا:

ـ ما الفرق بينها وبين المعجزات؟

فردّ قائلاً:

ـ المعجزات تختصّ بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء.

ـ متوغّلاً أكثر في السؤال، استفسرته:

ـ وهل فعلاً حدثت الكرامات لبعض الأولياء؟

نظر إليّ نظرة متسامحة، ثم قال:

ـ لا أحد متأكّدًا من ذلك، فحتى لو وقعت لا أحد يمكنه أن يتأكّد من وقوعها، لأنّ صاحب الكرامة لا يتحدّث عنها ولا يشيعها بين الناس في حياته، وإنّما يشيعها الناس عنه بعد مماته.

مرّت حياتي في أزمور على هذا المنوال لفترة طويلة، ما بين المسجد أتلقّى العلوم على يد شيخي أبي شعيب، وما بين سياحتي

Twitter: @ketab_n

في الأرض، أجمع البقول، يتوسّطهما اهتمام بأحوال الناس وعاهاتهم البدنيّة والنفسيّة، التي يبدو أنّها لا تنتهي أبدًا.. وكانت جلساتي مع شيخي موردًا لي أعبّ منه جرعات متتالية من ماء الصلاح، كما أنّه لم يكن يبخل عليّ بمستجدّات الأمور فيما يخصّ سلطة الزمان، لذا ما إن تولّى تاشفين بن عليّ أمور الدولة، حتى وجدت خبرًا عند شيخي، ولقد كان مغتبطًا بذلك أيّما اغتباط، وحين سألته عن ذلك، أجاب:

ـ يُحكى أنّه الحلقة الأضعف في حكم المرابطين، سيسهّل على أهل دعوة التوحيد التخلّص منه في وقت قريب.

استغربت من شيخي اهتمامه بهذا الأمر، الذي ما فتئ خليل روحي وقرينها إبراهيم يحذّرني منه، فلم أجرؤ على السؤال، لكنّ شيخي فطن إلى ذلك، فقال موضحًا:

ـ ربّما بهذا الأمر يستقيم حال الدنيا أو يفسد، فإن صلح ساعدنا ذلك في القيام بأمور العلم والدين، وإن فسد اشتدّ علينا الخناق من كلّ جانب! وها أنت ترى بنفسك كيف تقاطر المعوزون وذوو الحاجات عليك في المسجد، يطلبون العون ممّن لا يملكه، فإن عدل السلطان، انتفت الحاجة إلى ذلك، وصلحت البلاد وعمرت، وتفرّغنا نحن لأمور العلم والدين.

فكّرت فيما قال، فإذا به الحقّ مصحصحًا، لكنّني وعدت نفسي بأن أظلّ بعيدًا عن شؤون السياسة، بما يضمن لنفسي نقاءها وسلامتها من رجس الشيطان.

في أحد الأيّام، زارت المدينة فرقة موسيقيّة من المجاذيب،

Twitter: @ketab_n

الذين يبرعون في القيام بكلّ ما هو غريب، ممّا لم تألفه عادة الناس، كشرب الماء الساخن أو طحن الزجاج أو طعن النفس بالسكاكين. . وما إن وصلتني موسيقاهم المثيرة، حتى تملّكتني العفاريت والجان، فتركت كلّ ما في يدي وركضت نحوهم، وإذا بي أنخرط في جذبتي القديمة، التي أدّيتها بإتقان في وقت مضى. لقد حنّت نفسي إلى تلك اللحظات المميّزة التي عشتها وأنا في البيت الكبير، شعرت بنفسي وكأنّني أعيشها الآن بكلّ قوّتها وجبروتها، تحلّق العازفون من حولي يردّدون أنغامهم الأثيرة، فتجمّع الناس من كلّ حدب وصوب، فإذا بي كالجمل الغاضب أخبط خبط عشواء هنا وهناك. كنت أرقص بكلّ الحماس والشوق، الذي تجمّع في قلبي وعقلي، وتفجّر في هذه الأثناء دفعة واحدة. فطن أعضاء الفرقة الموسيقيّة إلى أنّهم أمام شخص مختلف، بعد أن تناقل الناس اسمي من فم إلى فم، فتأكّدوا من أنّهم ضمنوا لأنفسهم عطايا أكثر، تكريمًا لا خلاف فيه من طرف العامّة، فأجادوا في الأداء، حتى لم يبق أحد من أهل حاضرة أزمور لم تجتذبه هذه الأجواء. استغلّت الفرقة الموسيقيّة الوضع وتوقّفت عن العزف للحظات، حتى جمعت ما جادت به الأيدي وتلقّت الكثير من الوعود، فعادت الأيدي إلى مداعبة الطبول والدفوف. لعلعت في الأجواء أنغام الناي، التي حرّكت سواكن الكثيرين، فالتحق بالحلقة الكثير من الراقصين رجالاً ونساء، حتى ضاق المكان بمن فيه، لكنّ الجميع كان منتشيًا بما حدث، وقد أفرغ الناس ما في نفوسهم من حدّة وضيق.

بعد هذه الحادثة، ازداد تعلّق الناس بي بكثير من الإصرار،

Twitter: @ketab_n

لقد اعتبروا إجادتي للرقص علامة من علامات قربي من الله، ورفع الحجاب عن عينيَّ، وأنّني قادر على الإتيان بما لا يستطيعه غيري.. والله لا أفهم كيف تأتّى لهم التفكير بهذا الشكل، لكنّني لم أعترض عليه، إذ سرعان ما عدت إلى سيرتي الأولى، أقوم بما عاهدت عليه نفسي إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً.

في إحدى الليالي، التقيت بشيخي أبي شعيب، وكان الحزن قد وضع وشاحه الكالح على وجهه، فسألته عمّا ألمّ به، فخاطبني قائلاً:

ـ تريد زوجتي خادمة، تقوم بأشغال المنزل، ولا أملك المال للاستجابة لطلبها.

فكّرت لحظة، ثم قلت له:

ـ المشكل محلول.

مستغربًا، سألني:

ـ كيف ذلك؟

ثم أضاف ممازحًا:

ـ هل ستتحقّق إحدى كراماتك الآن، وتُحضر خادمة من عدم؟

أجبته وابتسامة على شفتيَّ:

ـ الخادمة موجودة لا تحتاج لكرامات.

مستغربًا، سألني:

Twitter: @ketab_n

ـ أين هي؟

رددت عليه بكثير من البداهة:

ـ أنا.

منذهلاً، استفسرني:

ـ كيف أنت؟

فشرحت له أنّني تعوّدت من صغري أن أقوم بأشغال البيت، وأنّني أحسن العجين والطبيخ وغير ذلك ممّا يحتاجه البيت.

لم يقتنع بما قلته، فقال:

ـ لنفترض أنّك كذلك، فهل تظنّ زوجتي ستقبل؟

رددت عليه:

ـ ومن سيخبرها بذلك؟

لم يفهم قصدي، فأردف متسائلاً:

ـ كيف لا نخبرها وأنت ستكون في البيت؟

أجبته قائلاً:

ـ الأمر بسيط، سأتنكّر في لباس امرأة، ولن أقوم بالأشغال إلّا ليلاً.

اطمأنّت نفس شيخي قليلاً، لكنّه ظلّ على تشكّكه، انصرفت عنه للحظات، عمدت إلى صندوق كانت قد تجمّعت لديّ فيه بعض العطايا من الزوّار، التي كنت أعيد توزيعُها على من

Twitter: @ketab_n

يحتاجها أكثر منّي. استخرجت لباس امرأة. ارتديته، ووضعت على رأسي منديلاً، ثم عدت إلى شيخي أبي شعيب، فلمّا رآني أشاح بوجهه عنّي، ثم قال:

ـ ماذا تفعلين يا امرأة هنا في هذا الوقت من الليل؟

حينذاك، كشفت عن رأسي مبتسمًا، فظلّ شيخي مستغربًا ممّا حدث وتأكّد بأنّ الأمر سينجح، خاصّة وأنّ وجهي الأمرد، الذي لم ينبت به شعر أبدًا، كان يساعد على تنكُّري بشكل لا يبعث أبدًا على الشكّ.

منذ تلك الليلة، بدأت أتسلّل ليلاً إلى بيت شيخي أبي شعيب، بعد أن أتنكّر في لباس امرأة، والحقيقة أنّ الأمر كان يستهويني كثيرًا، ويذكّرني بطفولتي البعيدة وبأمّي، التي كان يعجبها أن أساعدها في الأشغال المنزليّة، وأشاركها فيما تقوم به النساء سرًّا. وإيغالاً في التمويه والتنكّر، عمدت يومًا إلى بعض النباتات وسحقتها، وصنعت منها أدوات للزينة، لن تظفر بها أجمل النساء وأبهاها، حتى إنّني كنت أتشكّك دومًا إن كنت أتقمّص روح امرأة، بعدما تذكّرت حديث إبراهيم عن الأرواح التي تتناسخ وتنتقل من كائن إلى كائن بعد موت الجسد، الذي كانت تستقرّ فيه. لم أتوقّف عند ذلك كثيرًا، فلقد كانت تنتظرني أشغال بلا حصر، كان عليّ أن أستسقي الماء من البئر، وأملأ الجرار والخوابي، التي سرعان ما كان الجفاف يجد طريقًا إليها، ثم أعمد إلى العجين فأتقن صنعه، وأشعل النار كي أطبخه قبيل حلول الفجر بقليل، كما كان عليّ أن أمرّ على مساحة البيت

Twitter: @ketab_n

بأجمعها فأكنّسها وأنظّفها، دون أن أنسى البقرة، التي كان يملكها شيخي أبو شعيب، فأحلبها وأضع حليبها جانبًا، حتى تستيقظ زوجته وتستعمله فيما تهفو نفسها إليه.

حين كنت ألتقي بشيخي، بعد أن أقضي يومي في البراري منشغلاً بخلق الله الأبكم نباتات ووحيشًا، كان يحدّثني عن الرضى الذي حازته أشغالي من طرف زوجته، وأنّها كانت تثني على ما أقوم به، بل كانت تدّعي أن ليس هناك خادمة في الدنيا تحسن عملها كما تعمل «المملوكة» التي حباها الله بها.

كنّا نبتسم معًا، ونمازح بعضنا بعضًا بذلك الاسم، ثم سرعان ما ننشغل بأمور أهمّ تستحقّ منّا الكثير من الاهتمام، فيما كانت سمعتي كمجذوب وكأحد أولياء الله المرفوع عنهم الحجاب تنتشر في كلّ مكان، حتى أضحت حديث المجالس، يتّفقون حولها حينًا ويختلفون أحيانًا كثيرة.. فبعضهم كان يعتبرني دجّالاً، ألتجئ إلى السحر لأقضي به مآرب شتّى، وآخرون كانوا يعتقدون أنّني مجرّد منحرف شاذّ، لا يربطني بالدين شيء، خاصّة أنّني كما يزعمون لا أهتمّ بأداء الفرائض كما هو متعارف عليها عند أهل الشريعة. والحقيقة، أنّه كان لي رأي في ذلك، فقد كنت أؤمن أنّ الداخل أهمّ من الخارج، أنّ الإيمان أعمق من مجرّد أشياء يقوم بها المرء مقلّدًا غيره، دون أن يفقه لها معنى.. فيما كان اعتقاد الكثير من الناس، وأغلبهم من العامّة، راسخًا بأنّ الله حباني بكرامات منه، لأنّني إنسان طيّب ولا يعرف الشرّ أو الغلّ إلى قلبي طريقًا، واستدلّوا على ذلك بما أقدّمه للفقراء والمساكين

Twitter: @ketab_n

وذوي العاهات من خدمات، رغم أنّني أعدّ في زمرتهم، وأنّني أستمرّ في الاقتيات من النباتات البرِّيَّة، رغم العطايا التي تصلني يوميًّا، والتي قد تغنيني عن ذلك إذا شئت الاستحواذ عليها، لكنّني أُعيد توزيعها على المحتاجين.

حين كنت أحدّث شيخي في كلّ ذلك، كان يردّ قائلاً:

ـ للأقدار طرق غريبة في تصريف أمورها، وأنا لا أفهم منها شيئًا سوى أنّك أفضل من صادفت في حياتي سريرة وأصفى روحًا، وأقرب إلى سنخ الطبيعة من جميع الناس.

استمرّت لقاءاتنا على هذه الوتيرة، أشتغل ليلاً في بيت شيخي، ونهارًا أهيم في البراري دون أن ينسيني ذلك خدمة الناس، حتى جاء ذلك اليوم، الذي رأيت فيه البِشْر والفرح يتلألآن على وجه مولاي أبي شعيب، فسألته عن السبب، فردّ قائلاً:

ـ لقد ألحّت زوجتي على السؤال عنك، واستغربت أنّك لا تظهر إلّا ليلاً، فأخبرتها قائلاً «لا يخدمك إلّا بو ونكلوط»، فخجلت من ذلك، وأقسمت أن لا تخدمها بعد اليوم.. وأنّها ستخدم نفسها بنفسها.

ظللت أحملق في وجهه، فأضاف قائلاً:

ـ كراماتك يا أبا يعزى! من يصدّق أنّ الله لمّا خصّك بعطفه وكرمه ووضع فيك سرّه: لقد كانت زوجتي متعنّتة، فإذا بها بسببك أضحت أَلْيَنَ خلق الله أجمعين.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قيل قديمًا «إذا أردت أن تشيع خبرًا أو تفضح سرًّا أخبر به امرأة»، وهذا بالفعل ما حدث في حالتي. فما إن عرفت زوجة شيخي أبي شعيب أيّوب السارية هويّتي، وتحقّقت منها، حتى أشاعت الخبر بين الناس، فتناقلوه بينهم بكثير من الرهبة، كعادتهم عندما ينقلون خبرًا عن أشخاص، يختلفون حولهم ما بين مبجّل ومحقّر، ولقد أضافوا من خيالهم الكثير من الأوهام التي صدّقوها، وأضحت لديهم الحقّ الذي يعلو ولا يُعلى عليه. لقد زعموا أنّ شيخي أبا شعيب دخل عليّ اليوم دون استئذان، فإذا به يرى الرحى تدور لوحدها، وهي تطحن الحبوب لمساعدتي في إعداد الخبز، وأنّ الخبزة التي كنت أخبزها سرعان ما تتضاعف مثنى وثلاث ورباع.

حينما كنّا نسمع هذا الكلام، لم نكن نشغل أنفسنا أنا وشيخي بالردّ عليه، وإنّما كنّا نبتسم في صمت، ونحن على يقين

Twitter: @ketab_n

أنّ الناس لن يصدّقوا غير ما تهيّئ لهم أنفسهم من حكايات وكلام يُلقى على عواهنه دون دقّة أو تمحيص.

على مقربة من مدينة أزمور، كانت هناك منطقة تحاذي البحر، تبعد قليلاً عن حاضرة مازغان، تدعى «تيط نفطر» ويسمّونها باللسان العربي عين الفطر، تستقرّ بها أسرة شريفة، نبغ منها أحد أبنائها واسمه محمّد أبو عبد الله، لكنّه قد غلب على تسميته لقب مولاي عبد الله أمغار، وأمغار في لساننا الأمازيغي تعني الشريف.. وقد كان هذا الرجل من أهل التقوى، الذين تُشدّ إليهم الرحال لطلب العلم أو الفتوى في أمور الدنيا والدين. وقد بلغ في الأمر شأوًا كبيرًا، جعل الأمير عليّ بن يوسف يستشيره في أمر تسوير مدينة مراكش، بعد أن استشار في ذلك ابن رشد فثبّط همّته. غير أنّ هذا الفقيه شجّعه على ذلك، فعمل بمشورته وبنى السور. لقد كانت تربط مولاي عبد الله أمغار علاقة طيّبة مع ملوك المرابطين، شيخي أبي شعيب أيّوب، الذي لم تكن علاقته بهم على ما يرام، وإنّما كان هواه مع الموحّدين. لذا ما إن سقطت دولة المرابطين وتولّى الحكم الأمراء الجدد، حتى دعوه إلى مراكش، فكان لا بدّ والحال هاته أن يستجيب لدعوتهم ويسافر نحو حاضرة ملكهم الكبرى.. قبل أن يقوم شيخي برحلته هذه، اقترح عليّ أن أرحل نحو الشيخ الشريف أبي عبد الله أمغار، لأستزيد من علمه وأقتدي بتقواه. لقد كانت بينهما ألفة كبيرة وصداقة ممتدّة في الزمان، وكان شيخي أبو شعيب حريصًا على زيارة أبي عبد الله مرّة واحدة في السنة على الأقلّ، فعملت بنصيحة شيخي وقرّرت القيام بهذه الرحلة، التي وجدتُ لها هوى

Twitter: @ketab_n

في نفسي، خاصّة وأنّني كنت عازمًا على التتلمذ على أكبر عدد من الشيوخ.. وهكذا مضى شيخي أبو شعيب في طريقه نحو مراكش بعد أن أجازني وأثنى عليّ أمام الجميع، فحملت متاعي البسيط ورحلت نحو منطقة عين الفطر، المشهورة بشيخها الشريف الوقور، المتبحّر في علوم الدنيا والدين.

مضيت في طريقي، محاولاً توجيه مساري بالبحر، لكنّ العامّة لم يتركوني لحالي، إذ إنّ أكثرهم رافقني في طريقي، يحاولون لمسي، ولمس متاعي البسيط بما فيه الحصير، الذي داومت على الجلوس عليه خلال إقامتي في حاضرة أزمور، وحملته معي في سفرتي هاته. حين وصلت إلى مازغان، لم أرغب الدخول إليها حتى لا تُفتن نفسي بجموع الناس، التي من المتوقّع أن تتحلّق من حولي وتطلب بركاتي المزعومة، غير أنّ أحد أثرياء المنطقة وصله خبر مروري من الطريق المحاذي لأملاكه الشاسعة، فأرسل لي بعض خدّامه، وأقسموا عليّ أن أرافقهم إلى البيت. حاولت التخلّص منهم، غير أنّ ذلك لم ينفع في شيء، لقد كانوا خائفين من عقاب سيّدهم إذا هم فشلوا في إحضاري إليه، فأشفقت عليهم واستجبت لطلبهم.. يا لهؤلاء الأغنياء، كلّ ما يرغبون فيه يتحقّق لهم، والفقراء دومًا يكونون أدواتهم لتحقيق ما تصبو أنفسهم إليه. وافقت على مرافقتهم بشرط أن لا أدخل البيت أبدًا، وأن أقضي ليلتي في الخلاء قريبًا من البهائم، فوافقوا على ذلك. حين وصلت إلى البيت الكبير الذي يسكنه الفلّاح الكبير، وجدت أنّه قد ذبح ذبيحة، قدّر أنّها تليق بمقام ضيفه، لكن يدي لم تمتدّ إلى شيء منها، وأقسمت عليه أن

Twitter: @ketab_n

يوزّعها على الفقراء. ذاع الخبر بين الناس، فتقاطر الفقراء على البيت ونالوا حصّتهم من الحيوان البائس، الذي كنت سببًا في ذبحه.

قضيت ليلتي في ذلك المكان قريبًا من حظيرة الماشية، التي اشتاقت نفسي إلى روائحها. وفي الصباح الباكر، عزمت على استئناف سفري نحو عين الفطر، فإذا بي أفاجأ بصاحب البيت يزورني ترافقه بغلة قويّة، فأقسم عليّ أن آخذها منه لأجعلها راحلتي، تيسّر عليّ أمر الترحال، تتوق له نفسي وتعشقه. كنت أتمنّى أن أرفض هذه العطيّة، لكنّ نفسي رغبت فيها، لم أر ضيرًا في قبولها. تمتمت ببعض الدعاء في حقّ الفلّاح الكبير، الذي ادّعى أنّ بركاتي حلّت عليه وعلى أسرته وأملاكه منذ أن حللت بينهم، وأنّ بقرة تعسّر عليها المخاض، وضعت حملها بيسر هذه الليلة.. لم أنشغل بكلّ ذلك، لقد أصبحت على بيّنة من الطريقة التي يفكّر بها الناس، فهم على استعداد لإلصاق كلّ ما يجنونه من خير إليّ، ويؤمنون أنّ الشرّ بعيد عن طريقي، رغم أنّني أراه بأمّ عيني يتربّص بطريقي، ولا أتوقّاه إلّا بشقّ الأنفس.

حقيقة، لقد كانت البغلة ذات نفع كبير لي، يسّرت عليّ التنقّل من مكان إلى مكان، وأصبحت بفضلها أطوي المسافات طيًّا دون أن ينال التعب من جسدي، أو يثقل البشر روحي بتوسّلاتهم، أو حينما يدعون لي أشياء لا أجد في نفسي القدرة على تحمّلها، فيُتعبون نفسي، ويفتحون طريق الشقاء إليها.

أشرفت على منطقة عين الفطر، فاكتشفت كالعادة أنّ خبر

Twitter: @ketab_n

رحلتي إليها قد سبقني، وأصبح حديث الناس، وأنّ بغلتي نالها ما نالني من تضخيم ومبالغة، حتى زعموا أنّها في لحظات من الليل تظهر لها أجنحة وتطير في الهواء، وتنقلني إلى أماكن لا تخطر للمرء على بال.

استقبلني أبو عبد الله أمغار، بما يستحقّ بمريد صديقه وصفيه أبي شعيب، فعرفت أنّ وصيّة خفيّة أرسلها شيخي أبو شعيب إلى الشريف من دون أن أفطن إلى ذلك. أوصاه بي خيرًا، فلم أجد نتيجة لذلك أيّ عناء في التأقلم مع الأجواء الجديدة.. حظيت بكلّ الاحترام والتقدير، وقد كان الشريف بكرم أخلاقه وأريحيّته يعاملني كندّ له، فلم يعد يقوم بصغيرة أو كبيرة إلّا ويشركني فيها، حتى الوضوء أخذ يأخذني معه متستّرًا عن الأبصار إلى عين، حكى لي أنّها عين مباركة ورثها عن أسلافه الميامين، وأنّه يخفيها عن العامّة حتى لا يفسدوها بكثرة التداول عليها، أو ينسجون حولها الخرافات، فيدّعون أنّها قادرة على شفاء المرضى من جميع الأمراض، التي يمكن أن تصيب الإنسان ببلائها.. حين زرتها وإيّاه لاحظت أنّها عين كباقي العيون المنتشرة على امتداد طول البلاد وعرضها، لا يميّزها شيء، غير شجرة غريبة الشكل تظلّلها، وكأنّها تحرسها. لكنّ العامّة كعادتهم، تلقّفوا خبر العين وأضافوا إليه الكثير، ولم يستثنوني من ذلك، لقد زعموا أنّ الشريف أبا عبد الله أخذني يومًا معه إلى هذه العين، التي توجد في جزيرة في أعماق البحر، وأنّ الشيخ قرأ بعض أوراده، فتمدّد البحر أمامنا كحصير، فوطأناه بأقدامنا، ومضينا نحو الجزيرة دون أن يبتلّ لنا قدم أو نغوص في الماء، وأضافوا أنّنا خلال العودة،

Twitter: @ketab_n

أراد الشريف اختباري ومعرفة مدى مكانتي في ميدان التصوُّف، وإلى أيّ مدى بلغت في مراقيه، فقرأ أوراده، ثم خاض في البحر، وخلّفني وراءه، فإذا بي أُخرج نايي وأتلحّف بحصيري، فأمشي فوق الماء وأصل عند الشريف بل أتجاوزه، وأصل اليابسة قبله.

وصلني والشريف أبو عبد الله أمغار هذا الكلام وغيره، لكنّنا لم نحفل به كثيرًا، فلقد أخبرني الشريف أنّ هذا ديدن العامّة، يختلقون من خيالهم أشياء محيّرة، لكنّها تعبّر عن المحبّة، التي يحملونها في قلوبهم لأولياء الله المخلصين، الذين لم تُغرِهم مفاتن الدنيا ومباهجها، وإنّما يعضّون بالنواجذ على تقوى الله والزهد والتقشُّف، ومجاهدة النفس، للبلوغ إلى الدرجات العلا من اليقين.

كانت التحوّلات السياسيّة قويّة آنذاك، لقد انقلب الحال من وضع إلى وضع، وذهبت دولة وحلّت محلّها دولة أخرى بأفكار جديدة، ورجال جدد، بزغ نجم البعض وأفل نجم البعض الآخر.. وقد لاحظت أنّ الشريف أبا عبد الله أمغار كان حريصًا على تتبّع الأخبار السياسيّة بكلّ تفاصيلها، وكان هناك رجال مكلّفون بهذا الأمر ينقلون للشريف الأخبار، فيتداولون فيها بكثير من التوسّع، وكنت أسمع الكثير ممّا يتحدّثون فيه، وإن كانت نفسي تأنف من ذلك وتمجّه، فنصيحة قرين روحي إبراهيم ظلّت تتردّد في نفسي زمنًا طويلاً ولم يفتر صداها أبدًا. وممّا أعجبني من حديثهم ما تناقلوه عن شيخي أبي شعيب أيّوب السّارية، الذي

Twitter: @ketab_n

ما إن وصل إلى مراكش حتى استقبله الحكّام الجدد بما يليق برجل تقي، له مكانته الدينيّة وسط العامّة والخاصّة، وأهمّ من ذلك كان مناوئًا للسلطة التي كانوا يعارضونها. وقد سأله أميرهم الجديد عبد المؤمن بن عليّ في كثير من المسائل الفقهيّة، والأمور الدنيويّة التي تختصّ بالحكم، فاستفاض في الإجابة، فنال استحسان الأمير وحاشيته، وبعد أن أكرموا وفادته، وقاموا بواجب الضيافة، وأقام عندهم مدّة مقبولة، حنّت بعدها نفسه إلى حاضرة أزمور ونهرها الخالد أمّ الربيع، حاولوا أن يستبْقوه بجانبه في مراكش، حتى يستفتوه في كثير من الأمور التي تستجدّ عليهم في قضايا الدين والحكم، غير أنّه التمس منهم أن يسمحوا له بالمغادرة، لأنّه اشتاق إلى بلدته، وأنّ وجوده فيها أكثر فائدة للجميع من بقائه في مراكش، التي تضمّ بين أسوارها العدد الكبير من العلماء والفقهاء وأولياء الله الصالحين.

قَبِل الأمير السماح له بمغادرة مراكش، لكنّه طلب منه أن يتمنّى عليه شيئًا يحقّقه له، فلم يتردّد شيخي أبو شعيب في طلب الشفاعة في نساء الأمير تاشفين بن عليّ المطاح بحكمه، فاستجاب الأمير عبد المؤمن له، وازداد شيخي بذلك مكانة في قلوب الجميع، فرغم اعتراضه على حكم المرابطين ورغم تضييق الولاة في عهدهم على رزقه ومحاصرتهم له، فقد غلب قلبه التسامح ولم تستول على نفسه الرغبة في الانتقام، فقدم بذلك القدوة التي يتعيّن على الناس الاقتداء بها، وخاصّة فيما يتعلّق بالعفو عند المقدرة.. ولعلّ بعضًا من هذا دفع الناس، خاصّتهم وعامّتهم، إلى التحدّث دون ملل عن كراماته التي لا تنتهي، ومنها

Twitter: @ketab_n

الظهور في مكانين في وقت واحد. فلقد أخبرني أحدهم أنّه صلّى صلاة عيد الأضحى في مدينة أغمات، وما كاد الناس ينصرفون من صلاته في أزمور حتى خرج معهم قصد بيته، وطلب من أهل بيته التضحية بكبش واحد دون غيره.

تحدّثنا في ذلك كثيرًا، وأمّا أنا الذي عاشرت شيخي مدّة طويلة هذا التصرّف المتسامح منه، فقد بدا لي أمرًا بديهيًّا، وغير مستغرب من شيخ وقور، سمح الأخلاق، غزير العلم، يملأ قلبه نور الله، فيضيء طريقه بأنواره الكاشفة.. حينذاك اشتقت إلى شيخي فاغرورقت عيناي بالدموع، ولم أخجل من ذرف بعضها أمام الشريف، الذي علم ما يجيش في خاطري، فقال مستفسرًا:

ـ أهو الشوق يا أبا يعزى؟

فأجبت وسط دموعي المتواطئة:

ـ إنّه الوله يا مولاي.

فردّ عليّ شيخي أبو عبد الله:

ـ يحقّ لك ذلك، هنيئًا لكما ببعضكما.

تعلّمت على يد شيخي الشريف أبي عبد الله أمغار الكثير من المسائل الدقيقة، التي كشفت عن جهلي الكبير، فأعادتني إلى رشدي ووطّنت التواضع في نفسي، وترسّخ في ذهني أنّ طريق المعرفة لا حدود له، وأنّ الله وحده قادر بأن يلقي بنوره على من يشاء من عباده، وأنّ الأمر لا يُنال فقط بكثرة طلب العلم والجدّ فيه، ولكنّه سبحانه وتعالى يفتح بصيرة من يشاء. وقد فاجأني

Twitter: @ketab_n

شيخي ذات يوم بسؤالي عن كثير من المسائل، فكنت أجيب عنه بما تحصّل لي من معرفة، وما فتح الله به عليّ من علم، فظهر الاستغراب على وجه شيخي، فقال:

ـ والله لا أكاد أصدّق أنّك أمّيٌّ لا تحسن القراءة والكتابة، وتحوز على هذه الدرجة من العلم.

أخجلني كلام شيخي، فلزمت الصمت، فأضاف قائلاً:

ـ أنت نور من أنوار الله.

ومنذ ذلك الحين، تشرّفت بحمل لقب جديد، فقد دأب الناس على تسميتي بـ «يلنور» أي صاحب النور.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

على امتداد العام، في كلّ محطّة توقّفت بها، كان يتكرّر ذكر حاضرة فاس، التي لا يكتمل علم أحد الطلّاب إلّا بها. لقد كان جامعها محجّ العلماء والفقهاء والطلّاب من كلّ الأنحاء، يقصدونها زرافات ووحدانًا، كي يتزوّدوا بالمعرفة على أيدي علماء، أطبقت شهرتهم الآفاق.. لذا ما إن أجازني شيخي أبو عبد الله أمغار، حتى عقدت العزم على أن أولي وجهي شطر فاس، وقد تضخّم الحنين في قلبي إليها. تذكّرت في تلك الأثناء مولاي عليّ ابن الشريف الشرقاوي، الذي كان يتلقّى العلم هناك، وكنت أنظر إليه بعين الغبطة القريبة إلى الحسد. أسرجت بغلتي المباركة وحملت حصيري، الذي لم يعد يفارقني، حتى إنّ العامّة لاحظوا ذلك، ونسجوا عنه الحكايات التي يحار المرء في تفسيرها، لقد زعموا له قدرات خاصّة، حتى إنّهم ادّعوا أنّ من يلفّ نفسه به، يظهر له مصيره واضحًا وضوح الشمس في كبد

Twitter: @ketab_n

السماء، في حين أنّني كنت حريصًا عليه، لأنّه يذكّرني دومًا بفقري إلى الله الغنيّ الحميد وضعفي، فلا ترتفع نفسي ولا تعلو عن قدرها مثل هذا الحصير البائس، فأحرص ـ نتيجة لذلك ـ على التمسّك بتواضعي، وعدم الانسياق وراء وساوس النفس الأمّارة بالسوء.

في طريقي نحو فاس، توقّفت عند الكثير من الفقهاء والشيوخ والأئمّة، الذين سمعتُ أخبارهم من أفواه شيوخي، أو تداول الناس أسماءهم سرًّا أو علانيّة، فأقمت عند كلّ منهم مدّة محدّدة، بحسب ما يتطلّبه الموقف، وتقتضيه حاجة في نفسي، لم أتبيّنها جيّدًا.. في كلّ مرّة كنت أجد أنّ كراماتي المفترى عليها قد سبقتني، بعد أن جابت الآفاق، واستقرّت في قلوب العامّة والخاصّة، فكان العامّة ينتظرون فرصة حلولي بينهم لينالوا نصيبهم ممّا يتوهّمون، وأمّا الخاصّة فكانوا يتندّرون عليّ ويسخرون، ويستغربون أن يحوز أسود أُمّيّ من العامّة مثل هذا الفضل، الذي لا يخصّ الله به ـ بحسب زعمهم ـ غير الشرفاء، الذين تنحدر سلالتهم من عترة النبيّ العربيّ الكريم..

مررت بمنطقة الشاوية، وزرت بعض أوليائها الصالحين، وكانت لي حكايات وغرائب مع بعضهم، وقد تفنّن عامّة الناس في نسج الغرائب، خاصّة المتعلّقة بالطعام.. فقد زعموا أنّني كلّما حللت بمنطقة اعتزلت الناس وأقمت بكوخ بسيط، وكنت أكتفي بأكل ما تنبته الأرض من نباتات! ولكن كلّما زارني أحد، أعددت له مائدة من لحوم الضأن وخبز القمح الشهيّ والفواكه،

Twitter: @ketab_n

التي حرصوا على ذكر أنّني أقدّم منها ما ليس في وقت نضوجها حتى يزيدوا الأمر إثارة! ومن أولياء الله الصالحين الذين حظيت بزيارتهم في تلك المنطقة: عمر بن هارون المديوني، الذي كان عبدًا صالحًا تقيًّا ورعًا لقّبه العامّة باسم سيدي بليوط، وهو تحريف للقب عُرِف به وهو «أبو الليوت»، لأنّهم زعموا أنّه لزم مقبرة، ولم ينشغل عن ذكر الله بشيء، فكانت الليوث تأتي وتتمسّح به، فنال بفضل هذه الكرامة ذلك اللقب.. كما ترصّدت لوليٍّ صالح آخر اعتاد المشي حافيًا على شاطئ البحر، واسمه عبد الرحمٰن الجمّار، فظفرت برؤيته والحديث معه بعد مشقّة وعنت، لأنّه كان دائم التنقّل ولا يستقرّ به المقام في مكان معيّن.

بعد المرور بفجاج وسفوح ومرتفعات، يتغيّر فيها حال الجوّ ويضطرب، وأنا على ظهر بغلتي، التي تمنّيت في تلك اللحظة حقًّا لو تحقّقت مزاعم العامّة، ونبت لها جناحان وطارت بي في الأجواء، لتبلغني وجهتي دون تعب أو جهد.. لكن هيهات يتحقّق ذلك!

أشرفت على فاس في إحدى الأماسي، فلاح لي بياضها وقبيها الخضراء، فتملّكتني قشعريرة.. أحسست أنّني أمام وجه التاريخ العتيق بكلّ مهابته وسطوته. هذه مدينة ضمّت أجساد الشرفاء والفقهاء أحياء وأمواتًا، مدينة تداول الناس فيها العلم وبنوا لها بين أحضانها أمجادًا متوارثة، كلّ ذلك جعلني أحسّ برهبة كبيرة، لكنّني لكزت البغلة بحركة خفيفة من قدمي، فاستجابت لرغبتي، وتقدّمت في سيرها نحو المدينة العالمة المشتهاة.

Twitter: @ketab_n

هناك، لم يكن صيتي بمثل ما كان عليه في غرب البلاد، إذ لم يلتفت إليّ أحد، فلقد كان في المدينة ما يشغل الناس عنّي، فقهاء وعلماء، منهم من ينتمي إلى المدينة، ومنهم من حلّ بها من الأندلس أو من المشرق، منجذبين للحظوة التي يلقاها العلماء في هذه المدينة.

قبل اتّخاذ قراري بالتوجّه إلى فاس، كنت قد تداولت الأمر مع شيخي أبي عبد الله أمغار، الذي أوصاني بالشيخ أبي بكر ابن العربي الذي استوطن فاس، كان قد تتلمذ على يد أبي حامد الغزالي الفقيه والعالم وقطب الطريقة الصوفيّة المشهور، والذي جدّد الدين واستحقّ في حياته لقب «حجّة الإسلام». وقد حدّثني الشريف أبو عبد الله عن شيخ فاس هذا حديثًا مستفيضًا، حتى حنّت نفسي لملاقاته. ومِمّا قال لي عنه بأنّه ولد بالأندلس وتحديدًا بمدينة إشبيلية، وأنّه طاف المشرق طولاً وعرضًا وتعلّم على أيدي جهابذة الفقهاء، وتوسّع في العلم حتى نال درجة الاجتهاد. التقيت بالرجل، فكان كما وصفه لي شيخي وأكثر، رجلاً ورعًا، تقيًّا، حلو اللسان، لكنّه للأسف لم يكن يتقن اللسان الأمازيغي، فاستعملنا الترجمان بيننا فترة من الزمان، ورغم أنّني تحسّرت كثيرًا لعدم قدرتي على الاغتراف من معين علمه، كما تشتهي النفس وتتمنّى، إلّا أنّني اكتفيت بالقرب منه، وقد عاملني بأخلاق الفقهاء المتنوّرين الذين لا يشبع القلب والذهن منهم.

بعد قضائي هناك مدّة تبدو كافية، وإن كانت أبدًا لا

Twitter: @ketab_n

تكفي، قرّرت أن أنتقل إلى مكان آخر، فلقد حنّت نفسي الحائرة المتعبة إلى الرحيل. ودّعت شيخي الذي أجازني هو كذلك وأثنى عليّ، فَسِحْتُ في الأرض أبحث عن شيوخ آخرين لأخدمهم، وأتزلّف إليهم، حتى أنال رضاهم وأغترف من علومهم.. استمرّ بي الطواف مدّة طويلة، حتى عددت أكثر من أربعين شيخًا، نعمت بصحبتهم، وخدمتهم بما أستطيعه، وتعلّمت على أيديهم الكثير ممّا أفادني في ديني ودنياي.. ثم توغّلت في الجبال، لأختلي بنفسي، وأكفّر عن تقصيري في الجهد، الذي لم أستطع بذله لتعلّم المزيد، فانقطعت عن الناس زمنًا طويلاً، وتدحرجت وسط الجبال المرتفعة، محاولاً الوصول إلى أبعد نقطة ممكنة عن البشر. لقد شعرت بالشيخوخة تدبّ إلى جسدي تدريجيًّا، وأخذت أعضائي تتثاقل، ومفاصلي أصابها بعض الوهن.. مررت من مسالك يصعب على المرء المرور منها، فأشفقت على بغلتي، التي تحمّلت الكثير من أجلي، ولم أسمع منها شكوى ولا أنينًا، كنت أخشى أن أغضب ربّي فيها، لكنّني بالمقابل كنت أشعر بأنّني مدفوع من طرف قوّة غريبة للتوجّه إلى مكان بعينه، لا أملك فكرة واضحة عنه، ولم تطأه قدماي من قبل..

وأخيرًا، استقرّ بي المقام في منطقة تاغيّة، وسط جبال صعبة الاختراق، فاتّخذت لنفسي مقامًا، ظننته أبديًّا منذ الوهلة الأولى التي وضعت فيها الرحال هناك. طاب لي المقام، فاستغرقت في العبادة وذكر الله بأفضل ما يحبّ، أقصد أسماءه الحسنى..

Twitter: @ketab_n

واستمررت في ذلك ليلاً ونهارًا، وكلّما أحسست بالجوع، قمت بجولة سريعة في رحاب الجبل، فاخترت ما أقتات عليه، ثم أعود إلى مكمني.

استمرّ الوضع هكذا، حتى جاء ذلك اليوم الذي ظهرت لي فيه من حيث لا أدري، كانت امرأة جميلة، لكنّها مهملة لحالها، اقتربت منّي وَجِلة، وفي عينيها الكثير من الرجاء، فخاطبتها قائلاً:

ـ باسم الله الرحمٰن الرحيم.. من أين طلعتِ لي أنتِ؟ جنّ أم إنس؟

ارتبكت المرأة، ثم قالت:

ـ إنس يا مولاي بوعزّة صاحب النور، نفعنا الله ببركتك.

كنت أعرف أنّ عامّة الناس تفضّل هذا الاسم وهذا اللقب، لتناديني به.

فأردفت سائلاً:

ـ من أين أتيتِ؟

قالت بنوع من الوثوق:

ـ أنا أقتفي أثرك منذ مدّة، وأتمنّى أن تقبلني لأبقى بقربك وأخدمك.

ـ حيّرني هذا الأمر وأربكني، فلم أحضّر نفسي لوضع مماثل، لقد ظننت نفسي قد ابتعدت عن طريق الناس، وإذا بطريق

Twitter: @ketab_n

الناس لم يبتعد عنّي، ولا ينفكّ يطاردني.

تفكّرت في الأمر، ثم سألتها:

ـ هل يرافقكِ أحد؟

أجابت بالنفي، لكنّني كنت أعرف أنّ هذا الوضع لن يستمرّ طويلاً، فما دامت قد وصلت إليّ، فبالتأكيد سيصل إليّ غيرها، وسيفسد القادمون عليّ وحدتي. عرفت آنذاك أنّني واهم، وأنّني أبدًا لا أستطيع الهروب من قدر الله، ثم فكّرت في فائدة العلم إن لم نعلّم به الناس، فكيف لنا أن نبتعد هكذا دون أن نقدّم للخلق ما نستطيع تقديمه!! قبلت بوجود المرأة بعد أن سألتها عن اسمها، فأخبرتني بأنّ اسمها «ميمونة»، فأضحت ملازمة لي، تأتيني في أوقات معيّنة لتسألني عمّا يمكن أن تقوم به من أجلي. كانت قد بنت لنفسها كوخًا في مرتفع غير بعيد عن كوخي، لكنّه يحجبها عنّي.

استمرّ بنا الحال هكذا أيّامًا وشهورًا، حتى لاحظت أنّ أناسًا آخرين وجدوا طريقهم سالكًا إليّ، وتبعهم آخرون، فأصابني ذلك بالإحباط، وخشيت على سمعتي من العامّة، الذين يمكنهم اليوم أن يبجّلوك إلى حدود لا يتصوّرها عقل، وفي الغد يمكنهم أن ينحدروا بك إلى الحضيض، ويختلقوا ضدّك الحكايات التي يمكنها أن تنغّص عليك حياتك إلى ما لانهاية! فكان ما قدّر الله شاء. ناديت صباحًا المرأة ميمونة حينما زارتني لتطمئنّ على حالي، طلبت منها أن تقترب فاقتربت، ثم سألتها:

ـ هل تتزوّجينني يا ميمونة؟

Twitter: @ketab_n

مصدومة، ردّت عليّ:

ـ وهل أولياء الله يتزوّجون؟

رددت عليها مبتسمًا:

ـ أنبياء الله أفضل منهم وتزوّجوا وخلّفوا ذريّات!

ظلّت المرأة واجمة في مكانها، ثم خفضت رأسها علامة الرضى، فقلت لها حاسمًا الأمر:

ـ حينما ترين رجلين يمرّان من هنا أحضريهما إليّ. وهكذا، لم يمرّ ذلك اليوم حتى باتت «ميمونة» في حضني، والحقيقة أنّ تلك الليلة علّمتني الكثير، وأكّدت لي أنّني ضيّعت في حياتي أمورًا لا يجب تضييعها..

أصبحت ميمونة، التي سيسمّيها الناس فيما بعد «لالة ميمونة»، بعد أن اعتادوا على مناداتي بمولاي بوعزّة، فكانت نِعْمَ الزوجة والمعين لي في تصريف أمور حياتي، لم يمرّ زمن طويل حتى انتفخ بطن ميمونة، فأشعرني ذلك بكثير من الاطمئنان. لقد كانت نفسي قد حنّت إلى الخلفة والنسل، الذي يحفظ ذكري في العالمين. أنجبت ميمونة ابنها الأوّل والثاني، وطال بي العمر حتى تحلّق حولي الكثير من الأبناء والبنات، وأصبحت المنطقة الخالية، التي حططت الرحال بها يومًا، مزارًا للناس من أماكن بعيدة، يبحثون عن أمل مفقود أو صحّة ضائعة أو حظّ تائه، أو نسل لم يحن أوانه بعد.. وكثر الخير من حولي حتى فاض عن حاجتي وحاجة أبنائي، فظللت على عهدي الأوّل أقدّمه للفقراء

Twitter: @ketab_n

والمحتاجين، فاكتظّ المكان بذوي العاهات وخفيفي العقول، يلتمس أهلهم عندي علاجًا لا أملكه، لكنّهم كانوا يدّعون أنّهم يعودون إلى ذويهم مختلفين بعد قدومهم إليّ. هل يكون جوّ الجبل، الذي أعرف موافقته للأبدان، هو السبب في ذلك، أم أعشابي التي ظللت أقدّمها للزوّار، أم أنّني حقًّا وليّ من أولياء الله الصالحين، جعلني الله تبارك وتعالى سببًا لمواساة عباده المثقلين بذنوبهم وعللهم وأوهامهم الكثيرة؟!

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف نجاح طاهر

يكتشف الراوي، أثناء عمله راعيًا للغنم، نزوعًا صوفيًا في عمق شخصيّته يتمثّل في علاقته بالطبيعة وأعشابها الثريّة والمدهشة. ومن خلال تنقّله بين مدن المغرب وبراريها، يلتقي متعبّدين ونسّاكًا يزوّدونه بطريق المعرفة التي لا حدود لها.

رواية تتناول سيرة الوليّ الصالح الشهير أبي يعزى الهسكوري، أحدِ أهمّ أقطاب التصوّف في تاريخ المغرب السياسي ـ الديني.

مصطفى لغتيري: قصّاص وروائيّ مغربيّ. صدر له العديدُ من الروايات والقصص.

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

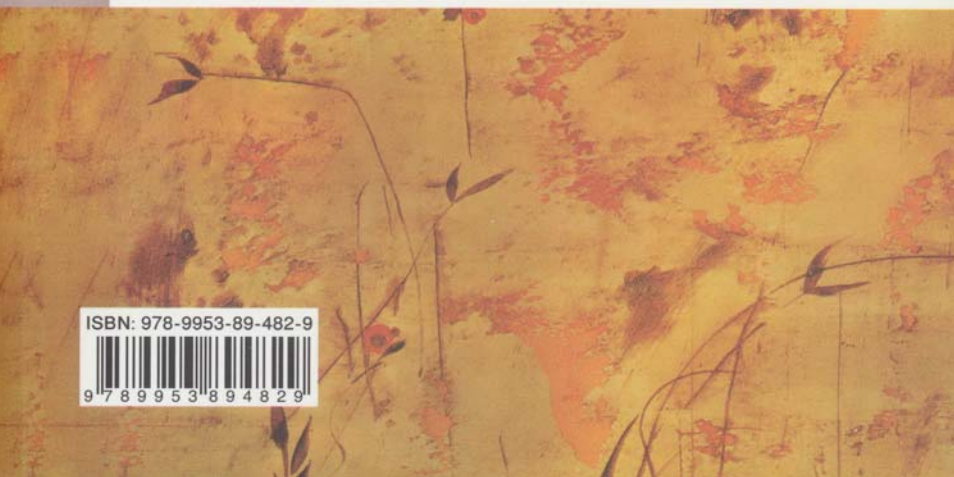

ISBN: 978-9953-89-482-9